وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد الصديق بن يحي– جيجل
كلية الآداب واللغات
قسم: اللّغة والأدب العربي

مذكرة بعنوان:

شعرية التباريح في غزل بوادي الحجاز
المجنونان أنموذجا

مذكّرة مكمّلة لنيل شهادة ليسانس في اللّغة والأدب العربي

تخصص: أدب عربي قديم

إعداد الطالبتين :
صليحة حمريش
عائشة طعوش

إشراف الأستاذ:
عبد الحميد بوكعباش

لجنة المناقشة

د/ عبد الحميد بوكعباش	جامعة جيجل	مشرفا ومقررا
د/ فريد عوف	جامعة جيجل	رئيسا
د/ عبدالرحمان مزرق	جامعة جيجل	مناقشا

السنة الجامعية: 1440/1439
الموافق لـــ: 2019/2018

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد الصديق بن يحي– جيجل
كلية الآداب واللغات
قسم: اللّغة والأدب العربي

مذكرة بعنوان:

شعرية التباريح في غزل بوادي الحجاز
المجنونان أنموذجا

مذكّرة مكمّلة لنيل شهادة ليسانس في اللّغة والأدب العربي

تخصص: أدب عربي قديم

إعداد الطالبتين :
صليحة حمريش
عائشة طعوش

إشراف الأستاذ:
عبد الحميد بوكعباش

لجنة المناقشة

د/ عبد الحميد بوكعباش	جامعة جيجل	مشرفا ومقررا
د/ فريد عوف	جامعة جيجل	رئيسا
د/ عبدالرحمان مزرق	جامعة جيجل	مناقشا

السنة الجامعية: 1440/1439
الموافق لـــ: 2019/2018

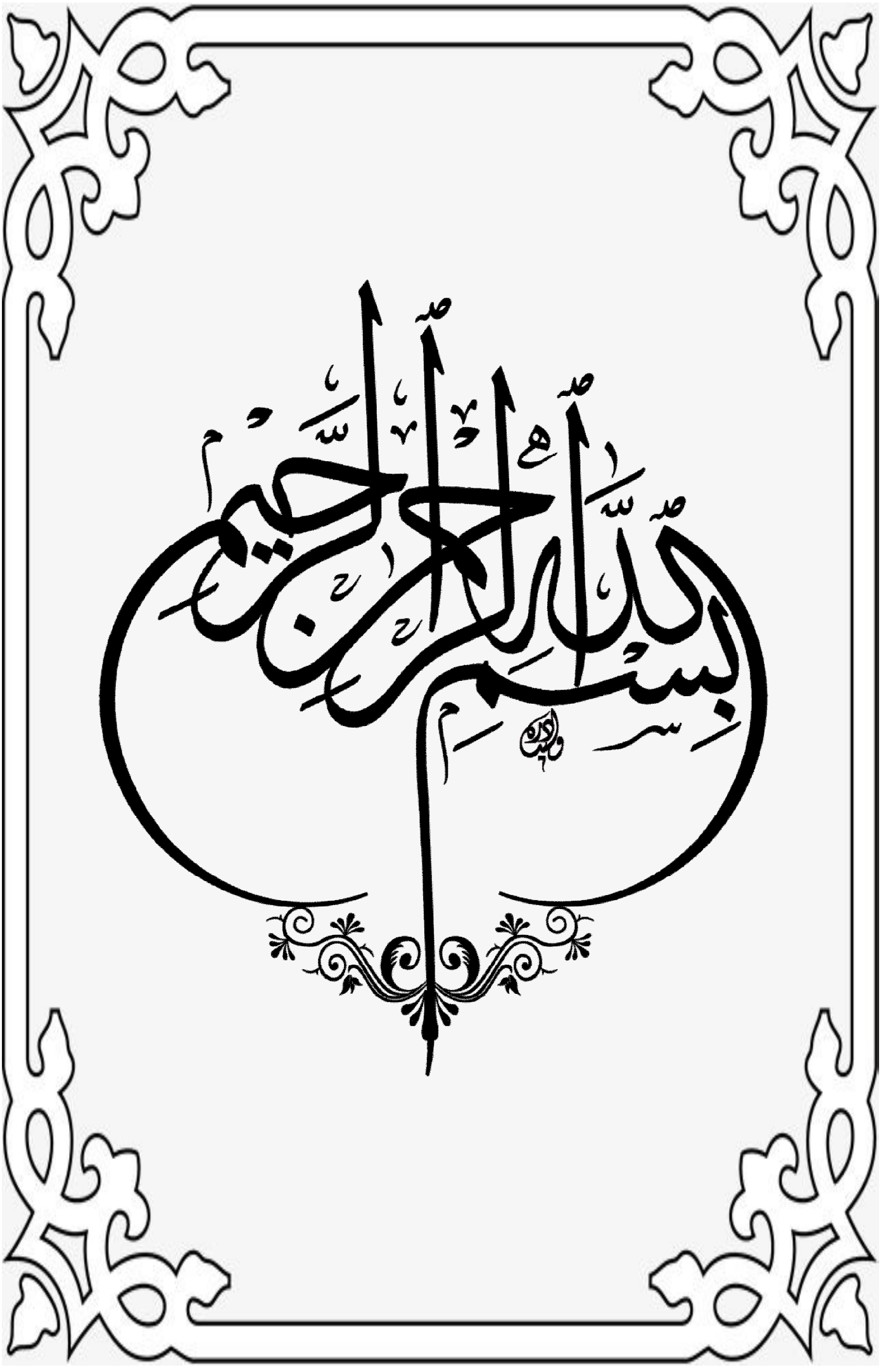
بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

نتقدم بأسمى وأجمل عبارات الشكر والعرفان والامتنان للأستاذ المشرف:

الأستاذ الدكتور "عبد الحميد بوكعباش"

الذي مد لنا يد العون وكان بالنسبة لنا المنارة التي اهتدينا بنورها لتدليل الكثير من الصعوبات التي واجهتنا في مسار هذا البحث من خلال توجيهاته وملاحظاته السديدة.

كما نشكر كل من ساعدنا على إنجاز هذا البحث من قريب أو من بعيد بملاحظة، أو توجيه، أو مرجع أو كلمة طيبة.

مقدمة

احتل مصطلح التباريح حيزا شاسعا في الدراسات والأبحاث الأدبية، فقد ارتبط العمل الشعري أساسا بتطور وتراكم معرفي مستمر منبعه أعماق الشاعر وأحاسيسه ومادته الأولى هي المجتمع والبيئة وتعليقاته.

إن التعبير عن الأحاسيس وخلجات النفس يفرض آهات تترجم في شكل نص شعري يساهم في تحويل هذه الآهات، ولهذا عرفت الكتابات الشعرية أهمية بالغة الأثر على الساحة الفنية العربية مبرزة تفاعل الشعراء مع بيئتهم الاجتماعية، فالشعر مرآة عاكسة لآلامهم وأحزانهم تعبيرا عن مدى تعلقهم وهيامهم بصويحباتهم وبفعل هذا اشتغل القيسيين بعذابهم ومعانتهم في العصر الأموي، وقد برزت سمة العفة والطهارة والنقاء في غزلهم العذري وبناء على ما سبق وانطلاقا من العنوان الرئيسي" شعرية التباريح في غزل بوادي الحجاز المجنونان أنموذجا" نطرح عدة تساؤلات واشكاليات أهمها:

– ما مفهوم التباريح؟ وما مدى ارتباط القيسين(قيس بن الملوّح) و(قيس بن ذريح)، بالتباريح لينضموا فيه شعرا؟

– كيف وصف القيسين التباريح كأداة جمالية في شعرهم؟

وللإجابة على هذه الأسئلة اعتمدنا على المنهج الوصفي التحليلي أي وصف ظاهرة التباريح وتعليل تواجدها، وتبيين جماليتها داخل النص الشعري.

– أما عن سبب اختيارنا لهذا الموضوع أنه موضوع يتميز بالعفة و لم يسبق التطرق إليه حسب علمنا.

كما اعتمدنا على خطة ممنهجة مقسمة إلى فصلين:

الفصل الأول: خصصناه للجانب النظري مقسم إلى ثلاث مباحث:

المبحث الأول: – ماهية الشعرية.

– عند العرب والغرب.

المبحث الثاني: تطرقنا فيه إلى الغزل عبر العصور

أما المبحث الثالث: فخصصناه لأنواع الغزل في الحجاز

يليه الفصل الثاني: حيث تطرقنا إلى دراسة تطبيقية لديواني المجنونين وتناولنا فيهما أنماط التباريح ووصف جمالية كل تبريحة.

وآخر المطاف، ختامٌ عبارة عن حوصلة لما قدم من نتائج. وتوصلنا لإنجاز هذا العمل من خلال الاعتماد على مجموعة من المصادر والمراجع نذكر منها:

– ديواني الشاعرين(قيس بن الملوح، وقيس بن ذريح)

– شوقي ضيف: تاريخ الأدب الجاهلي ج1.

- شوقي ضيف: الادب الإسلامي ج2.
- طه حسين: حديث الأربعاءج1،ج2.
- شكري فيصل: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام.
- أحمد محمد الحوفي: الغزل في العصر الجاهلي.
- عبد القادر القط: الغزل في العصر الإسلامي والأموي.

ومن أهم الصعوبات التي واجهتنا:

- الصعوبة في جمع المادة العلمية لندرة المصادر والمراجع.
- ضيق الوقت.

الفصل الأول

أولا: مفهوم الشعرية

ثانيا: تطور الغزل عبر العصور

ثالثا: أنواع الغزل وخصائصه في الشعر العربي

تمهيد:

تعد الشعرية من أهم التقنيات المستحدثة التي دخلت عالم الكتابة باعتبارها من المفاهيم النقدية التي اتسع فضاؤها في مجال الأدب والنقد، من خلال القرون الأخيرة حيث أصبح الاهتمام بها كبيرا من أجل كشف جماليات الأدب وإبراز اللّغة الشعرية فيه، هذه الأخيرة التي تنبثق من رحمها الأعمال الأدبية، "فاللّغة الشعرية" هي الريشة التي يرسم بها الشاعر عالم صوّره الفنّية، وبها يفحص عن تجربته الشعرية، حيث تحمل الألفاظ معنًا عقليا يحتشد فيه قدر كبير من المشاعر والأصداء والضلال...[1]

فالشعرية هي التي تخلق وتبتكر ألفاظ ومعاني جديدة يقوم الشاعر بإبداعها فتتشكل نصوصا شعرية حيث يتم من خلالها اكتشاف جماليات النص وأبعاده الإنسانية والحضارية، وتشخيص أيقوناته الجمالية والإبداعية وبهذا تظهر اللغة الشعرية في النصوص.

[1]– عمر يوسف قادري: تجربة كمال ناصر الشعرية، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 2009م، ص56.

أولا: مفهوم الشعرية

اختلف النقاد والباحثون حول تحديد مفهوم الشعرية وذلك باختلاف الاسم وتنوّع المصطلح سواء في الجانب اللّغوي أو الجانب الاصطلاحي.

أ- لغة:

لقد تعدّدت المفاهيم اللغوية حول كلمة (شَعَرَ) في المعاجم اللّغوية وقد ورد في لسان العرب لابن منضور، شَعَرَ وشَعِرَ به وشَعُرَ شِعْرًا وشَعْرًا ومشعورة وشعورًاوشُعُورَةً وشِعْرَى ومَشْعُورَاء ومشعورًا

الأخيرة عن اللّحياني كلّه عَلِمَ وحكى اللّحياني، عن الكسائي: ليت شِعْرِي لفلان، أي لَيْتَ عِلْمِي لفلان، وليتني عَلِمْتُ لَيْتَ عِلْمِي ما صَنع فلان أي ليتني شعَرْتُ والشعْرُ منظُوم القَوْلَ غلب عليه بالوزن والقافية «قال الأزهري: الجمع أشعار، وقائِله شاعر لأنّه يشعر ما لا يشْعُرُ غيره أيْ يَعْلَمُ».[1]

كما جاء في معجم العربية الكلاسيكية، كلمة شعرية مأخوذة من شَعَرَ وشَعْرًا قال الشعر قرضا الشَعْر – فلان غَلَبَهُ في الشِّعْر،شَعِرَ، شَعِرًا، كَثُرَ شَعْرُهُ وطَالَ، شَعِرَ تَشْعِيرًا الثوب، بطّنه بالشَّعْرِ، شعْرٌ ما ينبت على البدن مما ليس بصوف ولا وبر، شِعْرُ: كلام موزون مقفى المحرّك للنفس،ليت شِعْرِي فُلَانَا أو عن فلان أو لفلان ما صنع: أي ليتني شَعَرْتُ أي عَلِمْتُ بما صنع، ليت شِعْرِي ← ليتني أعلم، عَلِمْتُ، ليت عِلْمِي.[2]

وخلاصة القول كلمة شَعَرَ تعني العِلْمُ والشعور والإحساس والدّراية.

ب- اصطلاحا:

اختلفت الآراء وتباينت المفاهيم حول مصطلح الشعرية عند الغرب وعند العرب على سواء ثم إن محاولاتهم في وضع مصطلح شامل ودقيق باءت بالفشل، وهذا ما نلمسه من خلال تعريفات النقاد لمصطلح الشعرية ثم إن «البحث في شعرية النصوص الإبداعية سيبقى دائما مجالا خصبا لتصوّرات ونظريات مختلفة ... وسيبقى البحث في الشعرية محاولة فحسب للعثور على بنية مفهومية هاربة دائما وأبدا»[3] فالشعرية موضوع متشعب ومتفرّع «يستدعي منّا تحديد المصطلح وهذا المسعى محفوف بالمزالق لأن الشعرية تتضمن معاني متعدّدة غير متساوية من حيث الحضور النقدي»[4] فالشعرية تطرح خلافا بين النقاد على المستوى الاصطلاحي أو

[1]- جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، مج8، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط4، 2005، ص88، مادة شَعَرَ

[2]- دكتور يوسف محمد رضا، معجم العربية الكلاسيكية، ط1، لبنان، ص936، مادة شَعَرَ

[3]- حسن ناظم: مفاهيم الشعرية (دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم) المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1994، ص10.

[4]- مشري بن خليفة: الشعرية العربية مرجعياتها وابدالاتها النصية، وزارة الثقافة، الجزائر، د ط، 2007م، ص19.

المفاهيمي فقد اختلفوا في كونها نظرية أم منهج أم وظيفة من وظائف اللّغة... وسنقف عند مصطلح الشعرية عند الغرب والعرب.

ثانيا: جذور الشعرية

أ- عند الغرب

مصطلح الشعرية يعود في جذوره الأولى إلى الفلسفة الغربية عند أرسطو وأفلاطون. فالشعرية «مصطلح قديم حديث في الوقت نفسه»[1] قديم لأنه يمتد في عمقه التاريخي إلى كتاب أرسطو "فن الشعر" وحديث لأنه موضوع ليس محسوما فهو يحتمل وجود وجهات نظر أخرى حوله، نظرة تجديدتة تساير الخطابات الأدبية الحديثة التي تتغير طبيعتها حسب الفترة التي تكتب فيها فكلما تغيرت الخطابات تغيّرت معها النظرة الشعرية.

كذلك الشعرية لديها تعريفات تختلف من ناقد لآخر ومن زمن إلى زمن آخر«فالشعرية poetics هي قوانين الخطاب الأدبي وهذا هو المفهوم العام والمكتشف منذ أرسطو إلى الوقت الحاضر»[2] وحسب ما ذهب إليه مشري بن خليفة هنا، هو أن أرسطو في كتابه "فن الشعر" هو المرجعية التي انطلق منها المشتغلون في تحديد مفاهيم للشعرية على أن هناك نوعا من الاتفاق حول تحديد ذلك المفهوم الذي تصطبغ به الشعرية كونها ذات قوانين تتحدّد من خلالها تلك الجمالية داخل الخطابات الشعرية، النثرية.

أرسطو وأفلاطون:

ربط أفلاطون وأرسطو الشعرية بالمحاكاة حيث « تعد المحاكاة هي السبب الأوّل الذي يرجع إليه الشعر، أما السبب الثاني فهو أن الناس يستمتعون برؤية واستماع الأشياء من جديد أي تتيح فرصة الاستدلال والتعرف على الأشياء »[3] ردّ اليونان عملية الإبداع بشكل عام والشعر بشكل خاص بالمحاكاة والتقليد لما هو واقعي أو خيالي وبالتالي سنحاول تحديد معنى المحاكاة لدى أفلاطون وأرسطو وسنحاول أن ندرك وجهة كل منهما المحاكاة وسنقوم بالتحدّث أوّلا على أفلاطون.

[1]- حسن ناظم: مفاهيم الشعرية، مرجع سابق، ص11.

[2]- مشري بن خليفة: الشعرية العربية مرجعيتها وإبدالاتها النفسية وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص19.

[3]- رمضان الصباغ : في نقد الشعر العربي المعاصر، دار الوفاء للطباعة والنشر، ط1، الإسكندرية، 1998، ص26.

أ- المحاكاة عند أفلاطون:

يعد أفلاطون من الأوائل الذين اهتموا بمصطلح المحاكاة.«فهي اصطلاح ميثافيزيقي الأصل استعمله سقراط وأفلاطون، فقد قال سقراط: إن الرّسم والشعر والموسيقى والرقص والنحت كلها أنواع من التقليد ومفهوم التقليد عند سقراط وأفلاطون ... أساسه أن الوجود ينقسم إلى ثلاث دوائر الأولى: عالم المثل والثانية: عالم الحس وهو صورة" العالم الأوّل والثالثة: عالم الظلال والصور والأعمال الفنية »[1] فالحقيقة تكمن في عالم المثل أي العالم الأوّل في حين أن الثاني وفنية الثالث تقليد للأول، وبالتالي ربط الشعرية بالنتاج الإبداعي الذي يبدعه الإنسان، وعليه فالفنون الإبداعية عند أفلاطون قائمة على التقليد حيث أن عالم المثل يتضمن الحقائق المطلقة، أما عالم المحسوسات الذي نعيش فيه فإنه صورة مشوهة للعالم المثالي الأول الذي نعيش فيه.

ب- المحاكاة عند أرسطو:

يعتبر كتاب فن أرسطو أوّل كتاب ظهر منذ وجود الإنسان حيث نجده يتكلم على الشعر فقد «ترجمه العرب القدماء-أبو بشر متي بن يونس"328" تحت عنوان أبو طيقا»[2] فالمحاكاة هي المبدأ الرئيسي الذي يتكلم عليه هذا الكتاب، ومفهوم أفلاطون للمحاكاة تختلف عن مفهوم أرسطو« ويطرح أرسطو المحاكاة بوصفها قانونا للفن بشكل عام غير أن الاختلاف بين الفنون يكمن في الخصائص التي تنطوي عليها بشكل منفصل وتختلف المحاكاة ذاتها —حسب أرسطو- على وفق الوسائل والموضوعات والطريقة »[3]

تختلف المحاكاة باختلاف الفنون فمثلا الرسم مختلف عن الموسيقى والشعر، ويعتبر أرسطو المحاكاة الركيزة الأساسية لكل الفنون وخير مثال على ذلك الشعر إذ يقول«يبدو أن الشعر بوجه عام قد نشأ عن سببين، كليهما أصيل في الطبيعة الإنسانية:

1- المحاكاة فطرية يرثها الإنسان منذ الطفولة...

2- كما أن الإنسان -على العموم- يشعر بمتعة إزاء أعمال المحاكاة»[4]، أي أن الشاعر يحاكي الطبيعة وهذه المحاكاة فطرية في الإنسان منذ الأزل. ثم إن الفنان أو الشاعر والأديب لما يكتب شيئا أو يعبر عن صورة ما بطريقة ما فإنه يتلذذ بهذا التعبير الجميل، وكأنه يستشعر قيمة الأعمال عن طريق هذه المحاكاة.

---

[1]- إحسان عباس: فن الشعر، دار صادر، دار الشروق، عمان، بيروت، ط1، 1996، ص17.

[2]- حسن ناظم : مفاهيم الشعرية، مرجع سابق، ص21.

[3]- المرجع نفسه، ص21.

[4]- أرسطو: فن الشعر، تر: إبراهيم حمادة، مكتبة الأنجلو المصرية، د ط، د ت، ص79.

أما إذا انتقلنا إلى الشعرية عند النقاد الغربيين المحدثين فإننا نجد تودوروف، وجون كوهن، ورومان جاكسون

1- الشعرية عند جون كوهن(JEAN COHEN)

يعتبر جون كوهن من أفضل النقاد الفرنسيين الذين تناولوا الشعريات في أدق تفاصيلها، حيث أنه يرى أن الشعرية «علم موضوعه الشعر»[1] فربطه بالشعر تحديدا لم يكن في الأساس إلّا استنادا لطبيعة الشعر المتميزة نظرا للخصوصية التي تضع كيانه خاصة ما تعلق بالنظم الشعري، وكأهم مقوّم في العملية الشعرية وإفرازات هذا النظم باعتباره بنية موسيقية قائمة على الوزن والقافية استنادا إلى بحر من بحور الشعرية الطبيعية لحال هذه السمة التي ينفرد بها الشعر عموما عن النثر.

وكذلك شعرية جون كوهن تقوم على مبدأ الانزياح اللّغوي وهو يقوم عنده على « ثلاث مستويات كبرى المستوى الصوتي، التركيبي والدّلالي ومع حرصه الشديد على تضافر المستويين الصوتي والدّلالي في الحكم على شعرية النصوص حيث لم يكن التمييز بين الشعر والنثر إلّا من خلال تضافر هذين المستويين»[2] يعتبر جون كوهن الانزياح على مستوى اللّغة عاملا مكونا لبنية داخلية (الشعر) إذا ما تعلق الأمر في صنع تلك الجمالية الكاملة في تلك الصياغة الفنية التي يكتب بها الشعر، حيث يحدث انحراف عن القواعد المعيارية المعمول بها في اللّغة فتكسب اللّغة سمات غير عادية في تميز الشعر عن النثر.

2- شعرية تودوروف:(T.TODOROV)

الشعرية عنده تشمل الشعر والنثر وكل منهما تجمعهما الأدبية حيث يقول تودوروف:«ليس العمل الأدبي في حدّ ذاته هو موضوع الشعرية فما نستنطقه هو خصائص هذا الخطاب النّوعي، الذي هو الخطاب الأدبي وكل عمل عندئذ لا يعتبر إلّا تجلّيا لبنية محدّدة وعامة، وليس العمل إلّا إنجازا من إنجازاتها الممكنة، ولكل ذلك فإن هذا العلم لا يُعْنَى بالأدب الحقيقي بل بالأدب الممكن، وبعبارة أخرى بتلك الخصائص المجرّدة التي تصنع فرادة الحديث الأدبي، أي الأدبية»[3]إن هذا التوجه الذي سار فيه تودوروف حول الموضوع الفعلي للشعرية في العموم متعلق بالعمل الأدبي مهما كانت طبيعته إذ انه يتخذ نظرة أخرى في هذا الموضوع تحديدا، فالشعرية حسبه هي تجاوز للعمل الأدبي كقالب فني إلى البحث عن تلك الخصائص المخفية التي تكتنز داخل

[1]- جون كوهن: النظرية الشعرية، ترجمة: أحمد درويش، دار غريب،ط4، القاهرة، 2000، ص29.

[2]- المرجع نفسه، ص29.

[3]- تزفيطان تودوروف : الشعرية، تر: شكري المبخوث ورجاء بن سلامة، دار بوبقال للنشر، ط 1، المغرب، ، 1990،1987،2، ص23.

ذلك العمل الأدبي، كإشارة منه أن هذه الشعرية تتجاوز البحث في العمل الأدبي كقالب فني إلى البحث في المميزات الداخلية للعمل الأدبي كونها هي تضع روحه الجمالية.

3- الشعرية عند جاكبسون (ROMAN JACKOBSON)

يلخص جاكبسون الشعرية على أنها«ذلك الفرع من اللّسانيات الذي يعالج الوظيفة الشعرية في علاقتها مع الوظائف الأخرى للّغة، وتهتم الشعرية بالمعنى الواسع للكلمة بالوظيفة الشعرية لا في الشعر فحسب، حيث تعطي الأولوية لهذه الوظيفة أو تلك على حساب الوظيفة الشعرية»[1] شعرية جاكسون انطلقت من منظور لساني فهو يعتبر الشعرية جزء من اللّسانيات كذلك شعريته لا تكتفي بدراسة الشعر وفقط بل تدرس الوظائف الشعرية الستة وهذه الوظائف تتمثل في: الوظيفة المرجعية، الوظيفة الانفعالية- الوظيفة الإفهامية- الوظيفة الإنتباهية- الوظيفة الشارحة، الوظيفة المرجعية.

ب: الشعرية عند العرب:

الشعرية عند العرب لديها عدّة تسميات منها: صناعة الشعر أو نظم الكلام أو عمود الشعر وسميت كذلك بالأقاويل الشعرية وقد تطرّق إليها العديد من الدّارسين القدامى والمحدثين أمثال عبد القاهر الجرجاني والجاحظ من القدماء، أما المحدثين فنجد كمال أبو ديب وغيره من النقاد.

1-الشعرية عند عبد القاهر الجرجاني:

من بين النقاد العرب القدامى الذين درسوا شعرية الكتابة نجد "عبد القاهر الجرجاني" فقد حاول أن يقيم بناءا نظريا متكاملا لفهم الظاهرة الأدبية عن طريق اكتناه تجسدها النصي (...) وقد كانت أبرز إنجازات الجرجاني تركيزه على تصوير العملية التحليلية للوصول بها إلى أقصى درجات الدّقة والصّرامة،والابتعاد التعميمات النظرية."[2]

وقد جاء عبد القاهر الجرجاني بمفهوم جديد ل"الشعرية" وهو "شعرية النظم" التي بدت جلية في كتابه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" من خلال قول "أدونيس": يعطي الجرجاني لهذه القضايا وبخاصة شعرية الكتابة وهي ما يهمنا، هنا شكلا نقديا متكاملا في كتابه "أسرار البلاغة" ودلائل الإعجاز، فهو يرى أن النظم هو الأساس في الكشف عن شعرية الكتابة أو النص"[3]النظم تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب

[1]- رومان جاكبسون: قضايا الشعرية، محمد مبارك، دار بوبقال للنشر، الدار البيضاء، ص23.

[2]- كمال أبو ديب: في الشعرية، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، 1987، ص8-9.

[3]- أدونيس: الشعرية العربية، دار الآداب، ط 1، بيروت، ص44.

بعض وقد اثبت "عبد القاهر الجرجاني" أن الحسن والجمال لا يتحقق في اللفظ أو في المعنى وحده وإنما يتحقق فيما سماه النظم.

والنظم لغة هو: التأليف، نَظَمَهُ، يَنْظُمُهُ، نظما ونظاما، ونظمَهُ فانتظم، وتنظّم، ونظمتُ اللّؤلؤ أي جمعته في السّلك، والتنظيم مثله ومنه نظمت الشعر، ونظمته أو ضممت بعضها ببعض فقد نظمته.[1]

فالدّلالة اللّغوية "للنظم" مترابطة ومتماسكة بين الأجزاء، وقد عرفه عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل "الإعجاز" بقوله: أما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتضى في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النّفس: فهو إذ نظم يعتبر حال المنظوم بعضه مع بعض وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء وارتفق ولذلك كان عندهم نظيرا للنسج والتألف والصياغة والبناء والوشي والتعبير وما أشبه ذلك، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى يكون لوضع كلٌ حيث وُضِعَ، عِلَّةٌ تقتضي كونه هناك، وحتى لو وضع في مكان غيره لا يصلح[2].

فالجرجاني يرى أنه ليس الغرض بنظم الكلم، أن تتوالى ألفاظها في النطق، بل في تناسق دلالتها، وتلاقي معانيها، وقد جعل من النظم أحد وسائل الإعجاز القرآني فيقول: "أعجزهم مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعتها ومجاري ألفاظها ومواقعها ومضرب كل مثل، وساق كل خبر وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام وتذكير وترغيب وترهيب ومع كل حجّة وبرهان، وصفة".[3]

وقد اقترن النظم لدى الجرجاني بثنائية "اللفظ والمعنى" فيقول "لما كانت المعاني إنما تتبين بالألفاظ وكان لا سبيل للمرتب لها والجامع شملها، إلى أن يعلّمك ما صنع في ترتيبها بفكرة إلا بترتيب الألفاظ في نطقه".[4]

فالنظم عبارة عن بنية يتحقق فيها ثنائية "اللفظ والمعنى"،يقول لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس، ثم النطق بالألفاظ على حدودها، لكان ينبغي أن لا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه لأنهما يحسان بتوالي الألفاظ في النطق إحساسا واحدا، ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئا بجعله الآخر.[5]

---

[1]- ابن منظور: لسان العرب، مج7، ص533. مادة نَظَمَ.

[2]-عبد القاهر جرجاني: دلائل الإعجاز، (تح) محمود محمد شاكر، دار المدني، د ط، د ب، ص49.

[3]- المرجع نفسه، ص39.

[4]- المرجع نفسه، ص64.

[5]- المرجع نفسه، ص51.

والنص هو المنطق عند "عبد القاهر الجرجاني"، إذ يتشكل المعنى من داخله في إطار العلاقات والتراكيب النحوية فهو يرى "أن النظم هو الأساس في الكشف عن شعرية النص، وأن المعنى لا يوجد خارج النص، وإنما هو يتشكل في السّياق وينتج عن هذا الموقف أمران.

الأول: هو أن الشعرية هي طريقة إثبات المعنى

الثاني: هو أن اكتشاف الشعرية لا يتم بالسّماع وحده، وإنما يجب النظر إلى النص "بالقلب" ويجب الاستعانة بالفكر "ويجب إعمال الرؤية و"مراجعة العقل" والاستنجاد بالفهم.[1]

ونجد مصطلح الشعرية يتحقق بصورة واضحة في مصطلح النظم في قول محمد عبد المطلب: "وإذا كان "عبد القاهر الجرجاني" لم يتعامل مع مصطلح "الشعرية" على صيغة النسب أو المصدرية، فإنه تعامل معه بمدلوله، إذ النظم ليس إلا حركة واعية داخل الصياغة الأدبية وعلى اختلاف الاصطلاح كان اختياره لمصطلح "النظم" أدق في رأينا".[2]

-رغم التشابه الكثير بين "النظم" والشعرية إلا أنه لا يمكن أن نقول أن النظم هو الشعرية.

فقد انتقل النظم مع "عبد القهار الجرجاني" من التركيز على مستوى الصوتي الموسيقي المعتمد على الوزن والقافية إلى النظام الصياغي والتأليفي المعتمد على النتاج الدّلالي "وتعد ظاهرة التجنيس من أشد الظواهر التعبيرية تأثيرا في الإيقاع الصوتي الدلالي ومن تم كان لها أهميتها في شعرية عبد القاهر الجرجاني خاصة إذا كانت متوافقة مع حركة الذهن في وقفاته ومواقعه المختارة على أن يكون هناك لون من التواصل بين طرفي الجنسين".[3]

- فالتجنيس يساهم في تكثيف المعاني وإعطائها دلالات جديدة.

وتقوم بلاغة "التشبيه" و"الاستعارة" و"التمثيل" في القدرة على التصوير والتجسيم أو التقديم الحسي للمعنى الذي يتدخل الخيال في توجيهه وعرضه "فالصورة الاستعارية على سبيل المثال تملك سحرا إبداعيا يتدخل الخيال في قولبته وأنك لترى بها الجماد حيا ناطقا والأعجم فصيحا، والأجسام الخرس مبنية، والمعاني الخفية بادية جلية".[4]

---

[1]- مشري بن خليفة: الشعرية العربية مرجعيتها وابدالاتها النصية، ص81.

[2]- محمد عبد المطلب: قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، مكتبة لبنان ناشرون، د ط، بيروت، 1995، ص90.

[3]- المرجع نفسه، ص108.

[4]- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تح :محمد محمود شاكر الدار المدني ، دط ، القاهرة دت، ص 43.

وقد ربط "عبد القاهر الجرجاني" بين النحو والنظم، فهذا الأخير توخي معاني النحو وأحكامه بين الكلم "والنحو في هذا الموضع يخرج من الإعراب والقوانين التي تضبط اللّغة وتؤدي إلى سلامة العبارة اللّغوية في ضوء هذه العلاقة النظم-النحو الطريق إلى استنباط القوانين الإبداعية متيسرا أو منيرا في الوقت نفسه ومركز الإنارة هو المعنى المتخفي عن تلك العلاقة.[1]

لهذا يمكن القول أن الجرجاني لا يقف عند حدود النظم وإنما ميز بين نظم ونظم وهذا ما رآه مشري بن خليفة،حيث قدم لنا التصّور المحدث الذي يكشف عن الشعرية عند الجرجاني في النقاط التالية:

-النظر إلى النص الشعري باعتباره مجموعة من البنى لا قيمة لإحداها دون الأخرى والأهم من ذلك هو تحديد ماهي العلاقة بينهما.

- الرؤية الكلية إلى مكوّنات النص الشعري وسياقه.

- هناك كينونة للألفاظ قبل استعمالها تختلف عن كينونتها بعد الاستعمال حيث تنتقل من الثبات إلى التحويل.

-الفصاحة ليست في الألفاظ، وإنما تكمن في الفكر، وآليته التي تضع تركيبا مكونا من عدة ألفاظ.

-الجملة هي الأصل الجزئي وليس اللّفظ.

-مفهوم الشعرية يتمثل في الشعر والنثر فإن الشعرية عند الجرجاني هي الكتابة والنظم.[2]

2-الشعرية عند الجاحظ:

الجاحظ قسم الشعراء وفق منهج آخر وذلك في قوله«وإنما ذلك -أي قول الشعر- عن قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز والبلاد والأعراق».[3]

فالجاحظ قسم الشعراء إلى نوعين شعراء العرب وشعراء المولّدين حيث يرى أن شعراء العرب أكثر شعرية من المولّدين فيرى أن شعر المولّدين مطبوع فيقول:«القضية لا احتشم منها ولا أهاب الخصومة فيها، أن عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب، أشهر من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولّدة والنابتة وليس ذلك بواجب في كل ما قالوه»[4]الشاعر يفتخر بشعرية العرب القدماء بمختلف أنواعهم كما ذكرهم في قوله ولكنه في المقابل يقول أنه ليس علينا أن نتبع ما قالوه على الشعر.

---

[1]- حسن الناظم: مفاهيم الشعرية، ص27.

[2]- مشري بن خليفة: الشعرية العربية مرجعيتها وابدالاتها النصية، ص95.

[3]- عز الدين مناصرة: علم الشعريات (قراءة مونتاجية في أدبية الأدب)، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2008، ص57.

[4]- المرجع نفسه، ص58.

يقول الجاحظ:«ثم اعلم – حفظك الله– أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة ومعدودة»[1] يبين الجاحظ من خلال هذا المفهوم أن المعاني واضحة ومعروفة للجميع وفي موضع آخر يقول:«المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللّفظ، وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحة الطّبع وجودة السّبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج، وجنس من التصوير»[2] يبين الجاحظ في هذا القول أن المعاني واضحة ومعلومة لا أحد يجهلها ويرى أن الشعر الجيد يكمن في الإجادة وحسن الصياغة واعتبر الشعر صناعة مثله مثل سائر الصناعات الأخرى، وأنه جنس من التصوير.

الشعرية في منظور الجاحظ «لم تكن تكمن فيما يشتمل عليه الشعر من معان، ولكنه تمثل في إقامة الوزن وتخير اللّفظ وسهولة المخرج»[3]فالشعرية تكون نتاج بنية متكاملة يتداخل فيها المبنى والمعنى واللغة والتخيل والإيقاع، ولا شيء يؤلف بين هذه العناصر إلا صنعة أو صناعة.

في هذا القول يرى الجاحظ:«أن الشعر من حيث هو مفهوم يقضي إلى إفراز الجمال الفني الذي يأسر المتلقي،ويقوم على طائفة من الأسس منها:

أ– الوزن:ونحن نفترض أن الجاحظ كان يريد بهذا الوزن إلى الإيقاع الفني لا إلى الميزان العروضي الميكانيكي.

ب – تخير اللّفظ: وهو انتقاء اللّغة المنسوج بها الشعر بحيث تختلف اختلافا حتميا عن لغة النشر.

– سهولة المخرج: لم يشترط ناقد عربي في اللّغة الشعرية تواجد هذه الصفحة الفنّية ولعلّ الجاحظ كان يقصد بتخيير اللّفظ و لم يقل باختياره...[4].

3–الشعرية عند كمال أبو ديب:

إذا انتقلنا إلى العصر الحديث فإننا نجد "كمال أبو ديب" الذي يعد من بين النقاد العرب الذين برزوا في مجال الشعرية فهو يرى أن الشعرية «خصيصة علائقية أي أنها: تجسد في النص شبكة من العلاقات التي تنمو من بين مكوّنات أوّلية سماتها الأساسية أن كل ما يمكن أن يقع في سياق آخر دون أن يكون شعريا، لكنه في

[1]– أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين الجزء الأول، تح، عبد السلام محمد هارون، الناشر مكتبة الخانجي لطباعة والنشر والتوزيع ط7، القاهرة، مصر، 1998،ص76.

[2]–أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: الحيوان، تح، عبد السلام هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي،ط،3، بيروت لبنان، ، 1969، ص131 .132

[3]– عبد المالك مرتاض: مفهوم الشعريات في الفكر النقدي العربي، مجلة برقة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 2007،ص20.

[4]– المرجع نفسه، ص20.

السياق الذي تنشأ هذه العلاقات، وفي حركته المتواشجة مع مكونات أخرى لها، السمة الأساسية ذاتها تتحول إلى فعالية خلف الشعرية ومؤشر على وجودها».[1]

إن الكلية والعلائقية صفتان تكتسبان المكوّنات اللّغوية ترابط يحقق صفة الشعرية في بنية النصّ. ويهل "كمال أبو ديب" في الأخير إلى أن الشعرية هي وظيفة من وظائف الفجوة أو مسافة التوتر التي يعرف بأنها«الفضاء الذي ينشأ في إقحام مكونات الوجود، أو اللغة أو لأي عناصر تنتمي إلى ما يسميه ياكبسون نظام الترميز code في سياق تقوم فيه بينهما علاقات ذات بعدين».[2]

وهو بذلك يلح على أن العناصر اللغوية تحقق الشعرية في تجانسها وترابطها وفي سياقها، حيث أن العلائقية هي تعمل على تحقيق هذا التجانس أما إذا وجدت تلك العناصر منفردة خارج السياق فإنه لا يصح أن نطلق عليه صفة الشعرية وهذه الأخيرة تستند حسب كمال أبو ديب « إلى ما يسميه الفجوة أو مسافة التوتر، لأن لغة الشعر دلائلها لغة تتجسد فيها فاعليه التنظيم حيث ينشأ بخلق فجوة = مسافة التوتر على درجات مختلفة من السعة والحدة بين اللغة الشعرية واللغة اللاشعرية».3

وبهذا فإن الشعرية عند "كمال أبو ديب" تتضح من خلال مفهومي العقلانية الكلية ومفهوم التحول ويرى أنها وظيفة من وظائف ما يسمى بالفجوة أو مسافة التوتر، وبذلك قدم "كمال أبو ديب" الكثير للدراسات الشعرية العربية في العصر الحديث وذلك للثقافة الواسعة.

[1]- كمال أبو ديب: في الشعرية، ، ص14.

[2]- مشري بن خليفة: الشعرية العربية مرجعياتها وابدالاتها النصية، ص32.

[3]- بشير توريريت، الشعرية والحداثة، ص95.

2- تطور الغزل عبر العصور

تمهيد

الغزل من أقدم الفنون الشعرية عند العرب وأكثرها شيوعا، لأنه متصل بطبيعة الإنسان وبتجاربه الذاتية الخاصة فإن الحب يحرك كل القلوب، والشعراء يقومون بتصوير هذا الحب بعاطفة صادقة نابعة من الكُنْهْ أو الوجدان فيتدفق على لسان الشاعر معبرا عما يجيش خاطره بحس مرهف وعاطفة جياشة، فقد تغنوا بالمرأة ووصفوا عواطفهم وخفقاتهم حولها.

ثانيا– مفهوم الغزل:

هناك ثلاث مرادفات للغزل (الغزل والتشبيب والنسيب) وقد اختلف الباحثون حول هذه المرادفات هل تؤدي هذه المدلولات مدلولا واحدا أم لكل واحدة مدلولها الخاص.

أ– لغة:

الغَزَلُ حديث الفتْيَان والفتيات، ومُغازلَتَهُنَّ: مُحَادَثَتَهُنَّ ومُرَاوَدَتُهُنَّ، وقد غَازَلْتُهَا، التغزّل:التكلّفُ لذلك.

تقول غَازلتُهَا وغَازلتني وَتغَزَّلَ أي تكلف الغَزَلْ. وقد غَزِلَ غَزلًا وقد تَغزَّلَ بها وغَازَلَهَا وغَازَلتهُ مُغازَلةً. ورجل غَزِلٌ: مُستغزِلٌ بالنساء على النسب أي ذو غَزَلٍ وفي المثل هو أَغزَلُ من امرئ كمرئ القيس والعرب تقول أَغزَلَ من الحمى يرودون أنها معتادة للعليل متكررة عليه فكأنها عاشقة له مُتَغزِّلةٌ به ورجل غَزِلٌ ضعيف عن الأشياء فاتر فيها، عن الأعرابي وغَازَلَ الأربعين، دنا منها.[1]

وفي محيط المحيط الغزل من غزِلَ غ.ز.ل غَزَلَ يَغْزُلُ غَزْلٌ، غَزَلَ بالنساء: حادثهن بلطف ورقة وكلام عذب وتودد إليهن، غَزَلَ. غَزَلتُ. أَغزَلِ.غَزِلٌ، غَزِلتُ الصوف، فتلته خيوطا بالمغزَلْ، جلست تغزل الصوف بالمغزل في زاوية البيت[2].

غزلت المرأة القطن والصوف وغيرهما تغزله غزلا مدته وفتلته خيطانا، وغزل فلان بالنساء تغزل غزلا محادثتهن، والغزل المتغزل بالنساء والعفيف عن الأشياء والأغزل لاسم تفضيل من الغزل.غازل المرأة مغازلة حادثها وراودها تقول غازل المرأة مغازلة حادثها وراودها تقول غازلتها وغازلتني.

النسيب: رقيق الشعر في النساء.[3]

التشبيب: تشبيب الشعر وترقيقه بذكر النساء ومنهم من قال الفرق بين النسيب والغزل، أن الغزل معنى إذا اعتقده الإنسان في الصورة إلى النساء تسب بهن من أجله فكان النسيب هو ذكر الغزل والغزل هو التصابي والإشهار بالمحبة والغزل هو الأقوال والأفعال الجارية بين المحب والمحبوبة.[4]

وعليه يمكن القول تعددت المرادفات ولكن المعنى واحد وهو التودد والتحبب إلى النساء في إطار علاقة.

---

[1]– ابن منظور: لسان العرب، ج6، دار صادر للطباعة والشر، ط1، بيروت، لبنان، 2004، ص572، 573، مادة غزل.

[2]– بطرس البستاني: في محيط المحيط، مجلد6، ص611، مادة غَزَلَ.

[3] غازي ظليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه وأغراضه وأعلامه، ط1، دار الإرشاد، حمص، ص108.

[4] المرجع نفسه، ص109.

اصطلاحا:

«الغزل هو من الأغراض الشعرية المحببة إلى النفس، فهو يصور أشواق المحبين ولوعتهم، و لم يحفل العرب بشيء من احتفائهم بالغزل وهو من اصدق أنواع الشعر عاطفة صور فيه الشعراء أشواقهم وأحاسيسهم نحو المرأة تصوير للنفوس ولدواخلها».[1]

«وهو من أقدم الفنون الشعرية عند العرب وأكثرها شيوعا لأنه متصل بطبية الإنسان وبتجاربه الذاتية خاصة وأن الحب يحرك كل القلوب، والشعراء دون غيرهم يصورون هذا الحب بعاطفة صادقة فيتدفق على ألسنهم من وجدان مرهف يعبر عما يجيش في خاطر الشاعر وعما يختلج قلبه».[2]

«الغزل يتطلب من الرجل أن يتحدث إلى المرأة وأن يكون حديثه مؤثرا جذابا حتى يستميلها إلى وده ويستهويها إلى حبه، وهو في هذه السبل، يسلك شتى الوسائل ويركب صعب الأمور ويحتال إذا وصل بحيلته إلى الغاية ويداري إذا نفعت المدارة ويتدلل لها ويتوسل إليها...».[3]

من خلال هذه التعريفات نلاحظ أن الغزل هو أدب وجداني يحمل في طياته مجموع الأشواق والأحاسيس التي تختلج نفسية الشاعر حيث يحاول تدفيقها عن طريق ألفاظ وعبارات يعبر فيها عن هذه المشاعر.

– تطور الغزل عبر العصور

أ– العصر لجاهلي:

من المعروف أنه يوجد عند الغربيين من اليونان أنواع مختلفة من الشعر يردها نقادهم إلى أربعة أضرب شعر قصصي وتعليمي وغنائي وتمثيلي والشاعر في الضرب القصصي لا يتحدث عن عواطفه وأهوائه، فهو شاعر موضوعي ينكر نفسه فهو في هذا الضرب من الشعر يتحدث في قصته على بطل معتمدا في ذلك عن خياله بعيدا كل البعد عن ذاته، وهي كذلك لم تعرف الضرب التعليمي الذي ينظم فيه الشاعر طائفة من المعارف على نحو ما تعرف عند هزيود، الشاعر اليوناني هزيود وقصيدته الأعمال والأيام.التي يصور فيها فصول السنة والحياة الريفية، وكذلك لم يعرف الجاهليون الشعر التمثيلي الذي يعتمد على مسرح وحركة

[1]– محمد أحمد الحوفي: الغزل في العصر الجاهلي، دار النهضة، ط1، القاهرة، مصر، (د ت)، ص6.

[2]– سراج الدين محمد: الغزل في الشعر العربي، دار الراتب الجامعية، د ط، بيروت، لبنان،ص18.

[3]– يوسف حسين بكار: اتجاهات الغزل في القرن الثاني هجري، دار المنهال لطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، ص28.

وعمل معقد وجوار مع أشخاص، فهذه الضروب الثلاثة من الشعر لم يعرفها الجاهليون و لم يتطلعوا إليها سواء في النثر أو في الشعر أو في أغراض أخرى.

فقد كان الشعر الجاهلي يقرب كثيرا من الضرب الرابع الغنائي، لأنه يحول مثله في مشاعر الشاعر وعواطفه، ويصوره فرحا أو حزنا، وقد وجد منذ القدم عند اليونان، غذ عرفوا المدح والهجاء، والغزل ووصف الطبيعة والرثاء، وكان يصحب عندهم بآلة موسيقية يعزف عليها تسمى (ليرْ lyre) ومن ثم سموه lyric أي غنائي.

فإذا نحن لا نبعد حين تزعم أن الشعر الجاهلي جميعه غنائي، إذ يماثل الشعر الغنائي الغربي من حيث انه ذاتي يصور نفسية الفرد وما يختلجه من عواطف وأحاسيس سواء حين يتحمس الشاعر ويفتخر أو حين يمدح ويهجو أو حين يتغزل أو يرثي، أو حين يصف أي شيء مما ينبت حوله في جزيرته، وليس هذا فحسب، بل وغنه يماثل الأصول اليونانية للشعر الغنائي الغربي من حيث أنه كان يغني غناء، نقول إذن الشعر الجاهلي كان شبيه جدا للشعر اليوناني،إلا أن إرهاصاته وأصوله لم تزل مجهولة إلى يومنا هذا.

ويعني ذلك أن الشعر الجاهلي ارتبط بالغناء عند أقدم الشعراء، كما نجد أبا الفرج الأصفهاني يشير إلىأن شاعرا جاهليا تغنى ببعض شعره مثل ابن السليكة وعلقمة بن عبدة الفحل والأعشى، وكان يوقع شعره على آلة موسيقية معروفة باسم الصنج. وربما من أجل ذلك سمي صناجة العرب.[1]

فالغناء كان أساس تعلم الشعر عندهم، ولعل من أجل ذلك عبروا عن إلقاءه بالإنشاد، ومنه الحداء الذي كانوا يحبون به في أسفارهم وراء إبلهم، وكان غناء شعبيا عاما، مقترنا بذكر أدوات موسيقية مختلفة كالمزهر والدف مصنوعتان من الجلد وكان الصنج ولعله هو نفسه الآلة الفارسية المعروفة باسم الحبك. والبربط وهو آلة موسيقية شاعت في بلاد الإغريق.

ولطرفة ابن العبد وصف طويل لإحدى هؤلاء القيان، ولعل في ذلك كله ما يدل على أن الغناء في الجاهلية تأثر بعناصر أجنبية كثيرة.

ومعنى كل ما قد ما قدمناه أن الشعر في الجاهلية كان يصحب بالغناء والموسيقى، فهو شعر غنائي تام، ويظهر أن هذا الغناء لم يكن ساذجا حينذاك، فقد عرفوا منه ضروبا مختلفة، يقول إسحاق الموصلي: « غناء العرب قديما على ثلاثة أوجه النصب والسناد والهزج، فأما النصب فغناء الركبان والقيان وهو الذي يستعمل في المراثي وكله يخرج من أصل الطويل، في العروض، وأما السناد فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات وأما الهزج

[1]– ينظر، شوقي ضيفك تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف كورنيش النيل، ط11، القاهرة، ص189، 190.

فالخفيف الذي يرقص عليه ويمشي بالدف والمزمار فيطرب ويستخف.وهكذا كان غناء العرب قديما. وعلى هذا النحو يضم الشعراء الجاهلية شعرهم في جو غنائي متشبه لنفس الجو الذي نظم فيه اليونان شعرهم الغنائي فقد كان الشاعر يغني شعره.وإذا رجعنا إلى هذا الشعر وحدنا بقايا الغناء والموسيقى ظاهرة فيه ولعل القافية هي أهم هذه البقايا التي احتفظ بها، فهي بقية العزف فيه ورمز ما كان يصحبه من قرع الطبول ونقر الدفوف وكذلك التصريح في مطالع القصائد لقول أمريء القيس في معلقته يصف الفرس.

مِكَرٌ مِفَرٌ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ[1]

وإذا رجعنا إلى الشعر الجاهلي، وجدنا أن الشعراء نظموا في مختلف الأغراض. منهم من فخر ومنهم من مدح، وآخر هجا ورثى، وذلك وصف وتغزل.

وها نحن نقف عند غرض الغزل، فقد وجدناه مقسما بين ذكريات الشاعر لشبابه ووصفه للمرأة والمعروف أن أول صورة تلقانا هي بكاء الديار القديمة التي رحلوا عنها وتركوا فيها شبابهم وهو بكاء يفيض بالحنين الرائع، كما نراهم يقفون على المرأة فيصفون جسدها وخدها وثيابها وزينتها، وفمها وعنقها ومعصمها وساقها وثديها وشعرها ويروي الأصمعي على هذا النمط بغي قصته المرقش الأكبر لأسماء، في قصيدة له فيقول:

ولَقد دَخَلتُ على الفَتا ةِ الخِدرِ في اليَومِ المَطيرِ
الكاعِبُ الحَسناءُ تَر فِلُ في الدِّمَقسِ وفي الحَريرِ
فَدَفَعتُها فَتَدافَعَتْ مَشيَ القَطاةِ إلى الغَديرِ
وأُحِبُّها وتُحِبُّني ويُحِبُّ ناقَتُها بَعيري[2]

يصف هنا ما أثر في نفسه من تاريخ حبه حين داعب صاحبته وعانقها وما ارتابه من شعور في قلبه ومن هيام وصبابة وألم الفراق والشوق، ومن كل تاريخ البعد التي أتعبت كاهل الشاعر.

في أولية الشعر عند العرب:

العرب أشعر الساميين فطرة، وأبلغهم على الشعر أقدرهم لاتساع لغتهم للقول وملائمة بيئتهم للخيال، وصفاء قريحتهم وسذاجة معيشتهم، وقوّة عصبّيتهم وكمال حرّيتهم، وخلق جزيرتهم مما يصد الفكر عن التأمل، ويعوق الذهن عن التفكير فهم الصحراء والسّماء في فضاء من اللانهاية يملأ الذّهن والنّفس خيالا

[1] د.شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف كورنيش النيل، ط11، القاهرة، ج.م.ع، ص، ص 191.192.
[2] – المرجع نفسه، ص224.

وجلالا وروعة، وهم فوق ذلك ذو نفوس شاعرة، وطباع ثائرة، يستفزّهم الرعب والرّعب ويزد فيهم الطّرب والغصب، فلم يتركوا شيئا يجول في النّفس أو يقع تحت الحس إلا نظموه فكان لشعر ديوان علومهم وحكمهم، وسجل وقائعهم وسيرهم، وشاهد صوابهم وخطئهم، ومادّة حوارهم وسمرهم [1]ويرجع هذا إلى أن العربي كان أفصح الناس، لما تملكه من زاد معرفة في اللغة العربية الفصحى فلما استحوذ الشاعر العربي على ملكة اللغة استطاع أن يذهب بإبداعه وأطلق العنان إلى نظم الشعر معتمدا على ذالك في بلاغة العبارة وجودة الأسلوب وتنسيق الجمل، ثم أبدع في استخدام ما ظهر وشاع من المحسنات البديعية والتشبيهات والمجاز وغيرها من القواعد التي يعتمد عليها في نظم قصيدته.

وبما أن الشعر مستمد من الخيال والتّصور غذاؤه الحس والعربي لا يرى من المناظر البادية ويعيش في بيئة الحروب والبطولات، ولا يعرف من الجمال إلا جمال المرأة، وقد أطلق إلهامه وتصوره في الوصف بعدما تمكن من ملكة اللغة، مستعملا في ذالك أبلغ الألفاظ وأفصحها ثم معتمدا على أغراض ومضامين خادمة للموضوع وكدالك من محسنات ومجاز مما يؤدي إلى إضفاء جمالا ورونقا على هذه القصيدة.

فالشعر أقدم الآثار الأدبية عهدا لعلاقته لشعور وصلته بطبع، رغم أن أولويته عند العرب مجهولة فلم يدون التاريخ أوليّته إلا وهو محكم مقصّد، وليس من البديهي أنّ جذوره ظهرت في صورته الرائعة في شعر المهلهل أبن ربيعة وأمرئ القيس وإنما اختلفت عليه العصور وتنوعت فيه الحوادث، والمضنون أن العرب خطوه خطوة من المرسل إلى السّجع، ومن السّجع إلى الرّجز ثم تدرجوا من الرّجز إلى القصيدة بمعنى أنّ الشعر في بدايته الأولى مرّ بمراحل مختلفة وصل إلى نظم القصيدة وهذه الأطوار الثلاثة أولها السّجع كان يتوخاه الكهّان مناجاة وتوسلها للآلهة وتقييدا للحكمة، وكهانّ العرب ككهان الإغريق وهم الشعراء الأوّلون. حيث كانوا يزعمون أنهم مهبط الإلهام وإحياء الآلهة، فكانوا يسترحمونها ويتوسلون لها بالأناشيد في جمل مقفات أطلقوا عليها اسم السجع تشبيها لها بسجع الحمام فلما ارتقى فيهم ذوق الغناء وانتقل الشعر من المعابد إلى الصّحراء ومن الدعاء إلى الحداد اجتمع الوزن والقافية فكان الرجز ومن الرجز إلى القصيدة.[2]

ليس من شك في أن الشعر صنو للغناء، فتربتهما واحدة وهدفهما واحد فمن قال الشعر قال ليتغنى به.

وهكذا مشى الشعر يتسرب في أعقاب العصور بمختلف مراحلها وأحداثها ووقائعها، حتى ظهر على غفلة من التاريخ، في هذه البادية العربية، ومنذ ظهور العرب على صفحة التاريخ لا يمكن لأي رواية مأثورة أن

[1]- أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، 1438ه، 2017م، دار الشرق العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، لبنان، بيروت، ص36.
[2]- المرجع نفسه ، ص33.

تقدم لنا أخبارا يقينية وصحيحة عن أولية الشعر، لأن المتأمل في بداية الشعر الجاهلي يجد أن بدايته معدومة ومبهمة ولا يعرف من ولج بالشعر وأطال القصيدة حيث يذكر صاحب العمدة أن أول من قصد القصائد هو المهلهل بن ربيعة.

بمعنى أن المهلهل ابن ربيعة هو أول من قام ينظم الشعر في القصيدة وقد تسابقت القبائل العربية في نسب بداية الشعر إليها حرصا منها على شرف هذا الفن، وخشية ذهابه ونفاذه من الإرث العربي.

والدليل على ذلك قولهم: بدأ الشعر بكندة وختم بكندة، وعليه فقد بقيت إرهاصات هذا الفن مجهولة كما ذكرنا سابقا، وليس لدينا دليلا يحسم هذه القضية، ويضعها في مكانها الصحيح.

يقول امرئ القيس: « عُوجًا عَلى الطّلَلِ المُحِيلِ لأنَّنَا ... نَبكِي الدّيارِ كمَا بَكَى ابن خُذَامْ »

ويقول زهير:

ما أرانا نقولُ إلا مُعارًا .... ومُعارًا من قولنا مكرُورًا[1]

فالمتمعن في هذه الأبيات يلاحظ أن الشعر الجاهلي مر بأطوار مختلفة وبأحقاب عديدة تدرج فيها من السجع إلى الرجز، ثم إلى المقطوعات البسيطة التي تتكون من أبيات إلى أن وصل إلى الأوزان والقوافي الآن.

فقد عمل الأدباء والرواة جاهدين على مصادر الشعر وقاموا بجمعها في الكوفة والبصرة، وأصبحت تراث العرب وعنوان حضارتهم على مر الأجيال، والتراجع أن المهلهل هو أول من قام بقصد القصائد رغم أن إرهاصات هذا الفن كانت مجهولة وما زالت إلى يومنا هذا.

ولما كان الشعر مستمدا جذوره من الغناء فها هو أحمد حسن الزيات يقول: «إن الشعر مصدره الغناء وفي احد السجع من هديل الحمامة، والرجز من إيقاع مشي الناقة، ونفط الشعير من كلمة (شير) العبرية بمعنى الترتيلة والتسبيحة وقولهم إلى الآن أنشد الشعر بمعنى ألقاه»[2] فالمتمعن في هذا القول يتفطن إلى أن نغمات الشعر مأخوذة من أصوات ونغمات الحيوانات والطيور وذلك بسبب علاقة الإنسان الجاهلي ببيئته الصحراوية ومدى تمسكه بها، فأصبح يصفها بما فيها وما تراه في محيطه من زرع ونبات وحيوان وجمال.ومن هنا أخد من أصوات الحيوانات كل بغنتها الخاصة بها وعلى هذا الأساس قام بتنظيمها وترتيبها وأخرج لنا هذا الشاعر صورا جميلة معبرة عما يحيط به ويشاهده في قالب فني جميل.

[1]- عبد الله عبد الحميد علي: تاريخ الأدب في العصر الجاهلي1428ه/2008م، دار الكتاب الحديثة، د ط، ص70.

[2]- أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية والعليا، دار النهضة للنشر والتوزيع، ط1،-الفجالة- القاهرة، ص88.

كانت العرب عبارة عن قبائل متناثرة ومتفرقة في أرجاء الجزيرة، مما أدى بهذا التفرق إلى الصراع القبلي في الغالب، بسبب القحط، وضنك العيش الذي كان يحيط بهم وكان لكل قبيلة من القبائل شخصية مؤهلة ببعض الصفات جعلتها تكون مضمنة على القبيلة كلها، وكانت غالب الصفات التي يتصف بها الحنكة والمهارة، والخبرة والتجربة والقوة والشجاعة.

فالحياة السياسية في العصر الجاهلي ركزت على هذه القبائل، وما كان بينها من شجار وخصام أو تماسك ووئام، وظلت سمة الخصام والمشاجرة والاحتكاك إلى السلاح والدعوى إلى الحرب لأتفه الأسباب مما أدى بهذه العقلية المتعصبة إلى شحنهم بالأحقاد ونشر الضغائن والخلاف بينهم.[1]

وانطلاقا من هنا كانت الخصومات والشجار والاحتكاك إلى السلاح والحرب هي منشأ ومنطلق أغراض الشعرية، من فخر بسبب الانتصار في المعارك وهجاء العدو والخاسر وذكر المحاسن والنسب ووصف ساحة الوغى أثناء التزاعات، ومنه تفرعت الأغراض الشعرية وتنوعت فكل هذه التزاعات والخصوم أدت إلى بزوغ نوع جديد من الأدب بقي على مر العصور.

ومن هذا نستنتج أن الباعث لاختراع هذه الموضوعات ما هي إلا عوامل سياسية واجتماعية، دينية وعقلية سنذكرها في المراحل التالية.

الحياة السياسية:

الحياة السياسية هي العامل الأول الذي مهد لكل العوامل التي أدت إلى بروز فن الشعر في العصر الجاهلي «فقد كانت السمة الغالبة بين القبائل هي الخصام والمشاجرة، والاحتكام إلى السلاح والدعوة إلى الحرب لأتفه الأسباب يندفعون نحوها بلا شفقة ولا رحمة، فأحيت بينهم الأحقاد، ونشرت بينهم الضغائن والخلاف »

قال الشاعر يصور هذا الخلاف الذي كان بينهم:

لا يسألون أخاهمْ حينَ يندبُهم في النائباتِ على ما قالَ برهاناً[2]

فقد كانت العصبة القبلية هي أبرز سمة يشترك فيها كل القبائل العرب فلا تراجع ولا تردد عند اتخاذ قرار الهجوم، والنزول إلى ساحة الحرب ويمكننا القول بأن العامل السياسي هو الدافع الأساسي في البداية الأولى.

[1]- ينظر: عبد الرحمن عبد الحميد علي: تاريخ الأدب في العصر الجاهلي، دار الكتاب الحديث، د ط، 1428-2008، ص16.
[2]- المرجع نفسه، ص17.

فقد كانت أخبار حروبهم مشهورة تكلم فيها الأدباء ووصفها الشعراء، وتراث الجاهليين حافل وزاخر بها كانت بينهم حروب خلدها الشعر على مر الزمن.

الحياة الاجتماعية: عاش الجاهلي في صحرائه يصف ما فيها من زرع وتراه عيناه الفيافي، كان يعبر بصدق وإحساس وشعور عن حياتهم، وقد انقسم العرب إلى طائفتين

1- الحضر: تميزوا بأسلوبهم الخاص في حياتهم بوجود متطلبات الحياة حيث النماء والثراء فقد نعم هؤلاء في حياتهم نوعا ما، كصنعاء في اليمن، والمينة ويثرب والطائف بالحجاز، كما تمثل هذا الثراء أيضا في مملكة المناذرة التي كانت تابعة للفرس والغساسنة التابعة للروم، فتجلى فيهما التقدم النسبي الذي واكب حضارة الفرس والروم من تقدم، زار الشعراء هذين الإمارتين فتغنوا بما فيهما من جمال ومدحوا حكامها وملوكها.

2-البدو: كان العنصر البدوي هو الغالب في أرجاء الجزيرة، فتميزت بيئتهم بالجفاف حيث يقل المطر وجفاف الأرض، فتصورت حياتهم حياة رائعة وبأبهى إطلالة حيث حولوا أطلالها إلى أماكن لذكرياتهم وحبهم، وجعلوا من أسواقها منابر يتبارون فيها بأعظم الشعر وأروعه وكذلك كانت عيشتهم غير مستقرة وقائمة على الحل والترحال، بحثا عن مساقط الغيث ومنابت الكلأ والعشب والنماء.

يقول الشاعر في مطلع قصيدته بهذا الشأن:

يمشونَ في الحُللِ المُضاعَفِ نسجُها مشيَ الجمالِ إلى الجمالِ البزلِ[1]

فقد تعددت الأسباب والعوامل والبواعث فتوهمها الشاعر، وحملها موازين ثم سماها شعرا لأنه قد شعر وأحس بها.

جذور شعر الغزل:

تنوع الغزل في مختلف قصائد الشعر الجاهلي «فأغراض الشعر الجاهلي كثيرة يوصف بعضها بالسبق والصدق كالأطلال والغزل ورمي بعضها بالتقرب والتكسب، كالمدح والاعتذار ويتهم بعضها بالغلو والشطط كالفخر والهجاء، ويظهر في بعضها الجمود والجفاف كالتأمل والحكمة، لكن ألصقها بالنفس والجسد الغزل فهو التعبير الراقي عن الغريزة والتصوير الفني لما بين الذكر والأنثى من تجاذب أزلي أبدي لا انفصام فيه»[2]

[1] عبد الرحمن عبد الحميد علي : تاريخ الأدب في العصر الجاهلي، 1428ه/2008م، دار الكتاب الحديثة، د ط، ص17

[2]- د.غازي ظليمات وعرفان الأشقر :،الأدب الجاهلي قضاياه و أغراضه وأعلامه، ص109.

كان للنسب النصيب الأكبر في القصيدة الجاهلية وذلك بسبب ما كان من حل وترحال وانتقال بين أرجاء الصحاري، فكان البعد والحرمان ثم اللقاء والتواصل فالشاعر في أيام الفراق يتمثل حبيبته ويذكرها ويناجيها ويناديها ويضفي عليها صفاة غزل محببة إلى هواه ونفسه في أسلوب عذب رقيق.

ومما لا شك فيه أن الغزل قد أمثل مكانة مرموقة على غرار الأغراض الأخرى «فقد طغى على معظم الفنون الشعرية التي وصلت إلينا، وتكاد لا تخلو قصيدة جاهلية مهما كان نوعها من الغزل فكل الشعراء بدؤوا مدائحهم وأهاجيهم بالغزل، وتحدثوا عن ديار الأحبة عن الوصل والهجر والسعادة والعذاب والقرب والبعد»[1].

وما جعل الشعراء يتغنون بهذا الغرض، ذلك بما يتسم به من صدق للعاطفة ورقة وعذوبة المشاعر ورهف الأحاسيس، تعبيرا عما يختلج الوجدان والآهات بسبب الفراق والبعد والحرمان التي أرهقت نفسية الشاعر.

وفي هذا الصدد: «احتل الغزل هذا الحيز الكبير من الشعر العربي لارتباطه الوثيق بحياة الشاعر الذي يهزه الحب ويفيض قلبه بالعواطف، وأكثر غزل شعر الجاهليون من الوقوف على الأطلال، ووصف ارتحال الأحبة كما وقفوا عند وصف محاسن الجسم ولقاء الشاعر بصاحبته، وتحدثوا كذلك عن آرائهم في الحب وكان بعضهم يتغزل بالفتاة العربية النسب والبعض يتغزل بالقيان» يقول امرئ القيس في مطلع قصيدته:

صَحا القَلبُ عَن سَلمى وَقَد كادَ لا يَسلو وَأَقفَرَ مِن سَلمى التَعانيقُ فَالثِقلُ

وهذا عنترة قائلا:

رمتِ الفؤادَ مليحة عذراءُ عُ بسهامِ لحظٍ ما لهنَّ دواءُ[2]

تغنى الشعراء بوصف المرأة ووصف محاسنها وقوامها فقد كانت مرافقة للرجل في هذا الحل والترحال وكانت عنصرا فعالا في تلك الصحراء، والمطلع على دواوين شعر الجاهليين يتفطن إلى كثرتها ووفرتها.

تميز مطلع القصيدة الجاهلية بغرض الغزل، وكانت هذه السمة بارزة في قصائد الجاهليين ظاهرة ابتداء قصائدهم وأكثرها، بالغزل مهما كان موضوعها حتى لا تخلو القصيدة من ذلك في صورة الغزل أو حنين أو أطلال، ترى ما الذي دفع بالشعر العربي غلى هذا السبيل وللإجابة عن هذا السؤال نقوم باستعراض آراء بعض الباحثين فهذا ابن قتيبة يقول:«سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد،إنما يبد أفيها بذكر الديار

[1]- سراج الدين محمد: الغزل في الشعر العربي، دار الراتب، الجامعية، د ط، بيروت، لبنان، ص8.

[2]-ينظر المرجع نفسه، ص18.

والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب، وأستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الطغاة إذا كانت نازلة العمادة في الحلول والطعن خلاف ما عليه نازلة المدر، لانتجاعهم الكلأ وانتقالهم من ماء إلى ماء وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان، ثم وصل بذلك النسب فشكا شدة الشوق، وألم الوجد والفراق، وفرط الصبابة ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه وليستدعي به الأسماع إليه لأن التشبيب لائط بالقلوب، كما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وألف النساء فلا يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب وضاربا فيه بسهم حلال أو حرام»[1] ويقصد ابن قتيبة بقوله هذا أن الشعراء الجاهليون كما لهم من رهافة الحس ورقة الشعور، وجمال الذوق يعبرون عما يختلج وجدانهم من حب وعشق صادق والصّدق فطرتهم وصفاء قريحتهم وذلك بترجمة ما يجول بخواطرهم من عاطفة جياشة بسبب ألم البعد والفراق والهجر فجعلها إبن قتيبة صناعة مقصودة.

يضيف ابن رشيق قائلا:«فهذا لأنّه عاشق ولعمري إنه إذا أنفتح لشاعر نسيب القصيدة فقد ولج من الباب ووضع رجله في الرّكاب »[2]

بمعنى أنّه خالف ابن قتيبة فهو لم يجعل من الغزل أداة يلفت بها سمع السامع ليوقع أثرا فيه، بل بالعكس جعلها وسيلة الشاعر لنفسه ولشخصيته، يقوم بالتعبير عما في خاطره من ذكر لأحبابه ووقار الشوق وما يوخز قلبه من اهتزاز نفسي عاطفي مؤلم.

وفي نفس السّياق ثم إن هذا:«الغزل قد شغل الإرث الذي خلفه العصر الجاهلي، احتلّ كل مقدّمات القصائد بمختلف أغراضها المتنوعة وأخذ مكانا شاسعا واسعا فيه، وهو أخذ تقريبا الجزء الأكبر من ثروتنا الأدّبية في هذا العصر، ومطالعتنا لدواوين الجاهلية المختلفة تضعنا أمام هذه الحقيقة الواضحة وتؤكدها لنا وهي إن كثرة كثيرة من الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا تكاد تكون قاصرة على الغزل أو متعلقة به بسبب. وإنّ الأغراض الأخرى جميعا من الفخر والمدح والهجاء والرثاء لا تعدوا أن تكون قسيما لشعر الغزل، ومن هنا نقول أيضا إنّ الثروة الشعرية كالقطعة الذهبية ذات الوجهين نقش الجاهليون عن صفحتها الأولى عواطفهم التي بعثها فيهم الحب، وما يؤدّي إليه هذا الحب من وصل وهجر ومن شقاء أو سعادة ومن لذّة أو غصّة، وصوّروا هذه العواطف وأفنوا في تصويرها ملكاتهم ومواهبهم... وقد كان هذا كله ناتج عن تجربة شخصية ألقت أثرا بليغا في نفسية الشاعر بسبب علاقة غرامية تعرّض لها سواء كانت ناجحة أو فاشلة. أمّا الصّفحة

[1] شكري فيصل: تطور الغزل بين الجاهلية وصدر الإسلام من امرئ القيس إلى بن ربيعة، دار العلم للملايين، ط4، بيروت، ص21.
[2] المرجع نفسه، ص30.

الأخرى فقد جمعوا عليها كل أغراضهم الأخرى، ونثروا في أطرافها كلّ الفنون و الأغراض الثانية كيف ما كانت هذه الفنون و الأغراض»[1]

ثم يضيف قائلا في معرض حديثه «وليس هذا فحسب، بل إنّ الأغراض الأخرى التي عرض لها الشعراء الجاهليون لم تكن في كثير من الأحيان مقصودة إليها قصدا ومتعمدا إليها تعمدا، بل كانت روح الحب وعواطف الهوى هي التي تبعثها وهي التي تكمن وراءها أي أو بعبارة أخرى فكل هذه العبارات والتعبير التي يلقيه الشاعر كان مصدره الفؤاد أو القلب باعتباره أن القلب هو العضو الذي يحدث صفات الحزن والفرح ثم يضيف أن كثافة الشعر وكثرة مقاديره في التراث الأدبي الجاهلي يلفت القارئ إلى أن الشاعر يتعامل بوصف ذاتيته وفرديته »[2]

.بمعنى أنّ الشاعر يتعامل مع الظاهرة وكأنه يعيشها على اعتبار أنه هو لسان القبيلة بأكملها ثمّ أنّ هذا الغزل الذي وقف فيه الجاهليون على الأطلال منبعث من فيض العاطفة، إذن فهو في أول صفاته هو شعر عاطفي نابع من الوجدان.

في مقام آخر نذكر تقدم غرض الغزل عن باقي الأغراض:«فمن حيث أغراض الشعر وفنونه نرى شعراء الجاهلية قد نظموا في النسيب، والفخر والحماسة والمدح والرثاء والهجاء والاعتذار والوصف والحكمة والمثل وكان للنسيب عندهم المقام الأوّل من بين أغراض الشعر إذن هنا كان غرض الغزل هو المقدّم، في مطلع القصيدة وكانوا إذا نسبوا لا يعدون النساء يذكرون محاسنهن، ويشرحون أحوالهُنّ من ضعفهِنّ وإقامتهِنّ، ذلك بوصف الجمال الخارجي ووصف الأطلال بعد مغادرتهِنّ، واسترجاع الماضي بما فيه، والتشوق والحنين إليهنَّ بذكر المنازل والبيوت التّي نزلْنَ فيها ووصف كل ما جاء فيها من نبات وأزهار وأشجار، ثم بعد ذلك كان هذا الشاعر الجاهلي إذا ظمّ لهذا الغزل غرض آخر قدّم عليه النسيب وأفتتح به القصيدة، تعبيرا عن مشاعره الوجدانيّة وما تحملهُ من فيض والشوق والاحتياج، واستجاشَةً لملكته الشعريّة وتتدفّق بالشعر، ولّما كان البدو مفطورين على الحل والارتِحَالْ والتنقل من مكان لآخر فمرورهم بأطلال وبقايا الدّيار التي سبق لهم وأقاموا بها يَجْهَشُ فؤادهم وتحنّ قلوبهم للذكريات فإذا بهم يترنمون بشعر النسيب.[3] الغزل في أغلب القصائد الشعرية حاضر على بقية الألوان الشعريّة.

[1] د. شكري فيصل: تطور الغزل بين الجاهلية وصدر الإسلام من امرئ القيس إلى بن ربيعة، دار العلم للملايين، ط4، بيروت، ص23.

[2] المرجع نفسه، ص، ص24.26 .

[3]- ينظر: عبد العزيز عتيق في الأدب الإسلامي الأموي، 2001م.1422ه، دار النّهضة العربيّة، ط1، بيروت، لبنان، ص6.

لعب الغزل دورًا ريادِيًّا في العصر العباسي «ودخل في تاريخ النسيب بعض المذاهب الصّناعيّة التي استحدثت فيه، ونخص بالذكر من ذلك المذهبين، الأوّل ما سلكه المتنبي من التغزّل بممدوحة، والثاني ما استنه الوزير الطغرائي من الجمع بين مدح فتيان الحي، والتغزل بفتيانه، وقد شغف بهذه الطّريقة من المتأخرين ابن معتوق.[1]

تعدّدت الأغراض الجاهلية وتنوّعت ولكن تربّع غرض الغزل على عرش الشّعر في العصر الجاهلي ولا تخلو قصيدة شعريّة جاهلية من الغزل حتى وإن لم يكن هذا الغرض الرئيسي فيها، لأن تعبير الشاعر في تلك اللّحظة يستدْعِي كلامًا لينًا سَهْلًا دقيق المعنى ويبتعد عن الألفاظ العربية، ومن هنا وعلى اعتبار أن الغزل هو كلام يخرجه ويفضفضه الشاعر على خلفية تأثر واقع في القلب والقلب هو مصدر الأحاسيس والعواطف وصفات السعادة والتعاسة والحب والحزن والهجر وهذه الصفات كذلك منبعها القلب، إذن فهناك قاسم مشترك بين هذين الغرضين الغزل المنبعث من القلب وكذلك الشأن لبقية الأغراض فهي أيضًا من القلب ومن هنا نستنتج أن هذين الغرضين الغزل وبقية الأغراض بأنهما وجهين لعملة واحدة وهو القلب ومنبع العاطفة الصادقة التي يتكبدها القلب والشحنات العاطفية القويّة التي تكمن في: الجهة الأولى الغزل والثانية بقية الأغراض.

تركنا العصر الجاهلي، فقد ذهب وولّى، وأصبح جوف الجزيرة العربيّة في ضِرْمِ الحياة هَديرُ الحميم المكظوم والمقصود بجوفها ها هنا الحِجَاز بالضبط. وكذلك بعدما خمد النشاط والحركة في الجنوب العربي باستيلاء الفرس على اليمن، وفي الشمال بإلغاء إمارة اللخمين من العراق، فانحرف وتحول تيار النهضة العربية إلى الحجاز، وتدفق فانتشر في مدنه ولا سيما مكة، لأن مكة يومئذ كانت بوابة العرب لوجود البيت، ومعقل العروبة لاعتصامها مع بالصحراء من النفوذ الأجنبي ومجمع الثروة لموقعها الاستراتيجي، وذلك لوقوعها في طريق القوافل الآتية من الجنوب تحمل متاجر الهند واليمن بتجارة القماش والتوابل إلى مصر والشام، فهي سوق تجارية ومحجة دينية يؤمها العرب من أطراف الجزيرة، ويشترون منها السلع، ويؤدون مناسك الحج فيها ويشهدون موسم سوق عكاظ، ويتذوقون في ظلال الأشهر الحرم وهي الهدنة العامة المقدسة، نعمة السلام ولذة الهدوء، ويصلون ما قطعته أسنة الرماح في الغارات والحروب، وكانت قريش سيدة القرارات والقوانين بسبب ما تملكه من سلطة لهذه الحركة الدينية والاقتصادية والاجتماعية بسبب ولايتها على الكعبة، ورِيَاسَتِهَا في عكاظ، وزعامتها في التجارة وغناها من الإيلاف، وتَمَرُسُهَا في الأمور، وتواصلها بمختلف الأمم

[1]– مصطفى صادق الرّافعي: تاريخ آداب العرب، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط2، 2009، المجلّد الثالث، ص90.

والشعوب، فخضعت لها العرب بالدّين والشرف والمال وفرضت عليهم لغتها وأدبها حتى كادت اللهجات والقلوب تَتَحِدْ وتَـــتَجِهْ نحو غاية واحدة وها هو الإسلام ينير بنوره، إذن فقد قلب العقلية العربية قلبًا، وسَنّ على الجاهلية حربًا رسم مخطط مخالفا لما أَلِفُوه، ويناقض ما عرفوه.

فالشجاعة والشهامة والكرم الموفي إلى الشرف، والإخلاص للقبيلة، والقسوة في الانتقام، والتأثر ممن تعدّى على الأهل بالقول أو بالفعل هي كلها أصول الفضائل عند الجاهلية.

أما الإسلام فقد جعل المثل الأعلى للإنسان، الخضوع لله والانقياد لأمره والقناعة والتواضع. ثم الصبر عند الشدائد. فماتت بذلك العصبة القوميّة، وأصبحت الرّيادة للدّين لا للنسيب، والإخاء في الله لا في العَصَبْ، وهذا التغيير في العقليّة حتمًا يستلزم وبالضرورة حتْمًا تغيُّر ما يصدر عنها من فكر أو تصوير وقول.

فالشاعر الذي كان تستلهم قريحته الشعريّة قصائد المفاخرة والهجاء والخطيب الذي يخرج من لسانه سموم العداوة والبغضاء، كلهم وقفوا جميعا صامتين منصتين لدعوة الحق والإسلام لا يقولون ولا يفعلون إلا ما أمر به الله ويقره الرّسول صل الله عليه وسلم وأصبح القرآن والحديث دستور الأمة يسنان الشرائع ويرسمان الآداب ويهذبان الأخلاق، وكل هذا كان أهم الدوافع التي أدت إلى ضيق دائرة الشعر في صدر الإسلام وذلك بموت العصبية وقوّة الروح الدينية.[1]

وبهذا يكون الشعر والغزل قد قفزا قفزة نوعية متأثرة بروح الإسلام سنوضحها كالتالي من خلال مواقف وآراء متباينة.

ب- الغزل في صدر الإسلام:

يمثل صدر الإسلام الفترة الممتدة من مجيء الإسلام وإلى نهاية دولة بني أمية، وتقدّر هذه الفترة بحوالي اثنتي عشر سنة قبل الهجرة إلى سنة 132ه، وعند دراستنا لحالة الشعر في هذه المدة، لاحظنا أنها مرت بمراحل مختلفة فقمنا بتقسيمها إلى مراحل:

المرحلة الأولى: عصر الرسول صل الله عليه وسلم.

المرحلة الثانية: عصر الخلفاء الرّاشدين.

المرحلة الثالثة: عصر بني أمية

[1]- ينظر: أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار الشرق العربي للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط3، بيروت، 2017م/1438ه، ص87 ص88.

ولمعرفة مدى التطور الذي طرأ على الغزل في هذه الفترة التي تعرب من قرن ونصف قرن من الزّمن يجدر بنا أن نلم إلمامة عن حالة الشّعر في صدر الإسلام بعدما كنّا قد تطرّقنا لحالة شعر الغزل في العصر الجاهلي ومدى تطوره؟

عرف الغزل في عصر الإسلام تغييرا واختلافا عما كان عليه سابقا.فقد«خف شعر الغزل، لأنّ العرب انشغلوا بالدّعوة الإسلامية وبالفتوحات ولابدّ من أن الإسلام لم يحرم الحب، ولكن أراد أن يجعل منه قوّة دافعة نحو الخير كما أراد أن يُحِصِّنْ هذا الحب ويرفعه على مستوى الجاهليّة، وأن يسمُوا بهذه العاطفة فلا تنطلق في المعصيّة فقد ربط الإسلام بين الحب والعفة كما جاء في قول النبي صل الله عليه وسلم «من عشق فعفّ، فمات فهو شهيد»[1]وعليه فقد عرف الغزل اضطرابًا بدافع مؤثرات وأسباب أدت به إلى الركوض والتراجع وهي مجيء الإسلام والفتوحات الإسلامية، حيث أوقعت أثرا بليغا في نفسية الناس والشعراء، فانصرفوا عن حياة اللهو والبذخ والترف ولجؤوا إلى الزهد وكلها أدت إلى نتيجة حتمية هي الركوض والجفاء.

بينما هناك موقف آخر برأي آخر ولكن لا يختلف عن السّابق في نفس السّياق فيقول: «الإسلام لم يحرم الشعر لكن الشعراء خاصة الأتقياء منهم كفوا لفترة من النظم، ما عدا بعض القصائد في المدائح النبوية وشرح العقيدة أو هجاء الكفار أمّا شعراء الغزل فقد تأقلموا مع الدّين الجديد، واقتصر نزلهم على ما لا يؤدي الشعور ولا يشجع على المعصية باختصار الإسلام هدب الغزل هذه الفترة»[2]فقد عمل الإسلام على تغيير مسار الغزل إلى مسار آخر، حيث قام بتهذيب ألفاظه، وتحسين معانيه، عمومًا فالإسلام كان يستحسن مع ما يتوافق مع الشريعة ويدم ما كان مخالف للشريعة الإسلاميّة. وما كان يتنافى مع التعاليم الإسلاميّة.

أولا: موقف الرسول صل الله عليه وسلم: ومع بعثة الرسول صل الله عليه وسلم ونزول القرآن تغيرت حياة العرب نعم لقد انقلبت الموازين، ومرّد هذا إلى التعاليم التي جاءت به القرآن في محكم التنزيل، ولأنه لم يحرّم الشّعر فقد كان لرسولنا الكريم عليه الصلاة والتسليم موقفين متناقضين: فهو في الأوّل ينعي ويذم على الشعر ويقول في هذا المقال: «لأن يمتلأ جوف أحدكم قيحا فيريه إلى أن يمتلئ شعرًا»[3] وكان يعني هذا أنه لم يكن يذم كل كلام الشِّعر ويرفضه وإنما هو يستهجن نوعا خاصا بعينه وهو ذلك الذي يشجع على زرع الفتنة بين الشعوب والأمم العربية ويشجع على التشتت ومحاولة إشعال نار الحروب بين العرب وما هو مخالف للدّين الإسلامي.

[1]- سراج دّين محمد: الغزل في الشعر العربي، ص19.

[2]- المرجع نفسه، ص20.

[3]- د.عبد العزيز عتيق: في الأدب الإسلامي والأموي،ط1، 2001م/1422هـ، ص22.

ثم يضيف في قول آخر وفي نفس السياق قائلًا: لمّا نشأت بُغِضتُ إلى الأوثان وبغضت إلى الشعر و لم أهتم بشيء ممّا كانت الجاهلية تفعله إلّا مرتين، فعصمني الله منها ثمّ لم أعُدْ»[1]لمعنى أن أيام الجاهلية كانت العصبيّة القبلية وعبادة الأوثان والأصنام أهم سمة امتاز بها الجاهليون وذلك لجهلهم بمبادئ الدّين الإسلامي الحنيف.

ثمّ يأتي القرآن مؤيدا هذا الموقف ومزريّا على الشعراء ويقول عز وجل بعد بسم الله الرحمان الرحيم «والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون إلا الذي آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا اللّه كثيرًا» وأريد بهذه الآية الكريمة في كلمة الشعراء، أي أن اللّه تعالى يخبرنا على حالة الشعراء وصفهم الثابت فإنهم يتبعون الغاوون عن طريق الهدى المقبلون على طريق الغي والرّدى فهم في أنفسهم غاوون، وأتباعهم كلهم ضالين فاسدين، لا قرار لهم ولا يثبتون على حالٍ، وأقوالهم تخالف أفعالهم.

ثمّ بعد ذلك يعرض علينا رأيا آخر وهو صل الله عليه وسلم يمدح الشعر قائلًا: «إن من السحر لبيان وأن من الشعر لحكمه» وبالتالي نلاحظ أنه عليه أفضل الصلاة والسلام أحب الشّعر و لم ينبذه لأنه وفي حقيقة الأمر مدح ما يتفق مع تعاليم الدين الإسلامي ونصرته وذم ما يتعارض وروح الإسلام وما يوافق الإسلام فهو حسنه وما يعارض فقد استهجنه.

إذن ومن هذا كله نرى ألا تناقض نهائيا في موقف المصطفى من الشعر وإنما قضية استحسان واستهجان إذا اثبت إحداهما انسحبت الأخرى.

ج- الغزل في عصر الخلفاء الراشدين:

كنا قد ذكرنا سابقا بأن الشعر والغزل قد ظل في عهد الرّسول صل الله عليه وسلم جاهليا وأن تأثره بالإسلام كان منحصرا في مكان ضيق، أما حاله في هذا العصر عصر الخلفاء الراشدين فلم يرقا إلى مرتبة خيرًا مما كان عليه في عهد المصطفى عليه الصلاة والسلام، فهم في حقيقة الأمر كانوا لا يشجعون ولا يحفزون الشعراء على قول الشعر حتى يتطور ويزدهر عما كان عليه آنفا، بل كانوا يؤيدون ويشجعون من يعدل عنه ويهتم بقراءة القرآن ويتدبره وذكروا أن عمر بن الخطاب بعث إلى معرة بن شبعة وهو على الكوفة يقول له:«استنشد من قبلك من شعراء ما قالوا في الإسلام»فأرسل إلى الأغلب العجلي فقال له أنشدني فقال:

أرجزًا تريد أم قصيدًا لقد طلبت هينا موجودًا[2]

[1]- د.عبد العزيز عتيق: في الأدب الإسلامي والأموي،ط1، 2001م/1422هـ، ص23.

[2]- المرجع نفسه، ص35.

ظلّ شعر الغزل على حاله السّابق و لم يطرأ عليه أي تغير أو زيادة أو نقصان ولا من أي جانب لأن الخلفاء لم يهتموا به إلى درجة كبيرة تخلق الإرادة للشاعر وتدفع به نحو الكتابة والتدوين.

فقد سلك الخلفاء الراشدون نفس منهج رسولنا صل الله عليه وسلم في حث المسلمين على حفظ القرآن وعندها قصدوا إلى تدبره وتفسير آياته، شعروا بأنهم في أمس الحاجة إلى الشعراء وذلك لأن شعراء العرب آنذاك كانوا أفصح الناس وأهلا للغة العربية على اعتبار أن القرآن جاء بلسان عربي، وهذا موقف الخلفاء الراشدين والصحابة من الشعر فقد شجعوا عن العدول عنه إلى القرآن وبالتالي فقد كان موقفهم مشابها لموقف الرّسول صل الله عليه وسلم، حيث حثوا على أن يلقن أبنائهم أحسنه وأعفه تقويما لألسنتهم وتدريبا لنفوسهم واستعانة به عند الاقتضاء في فهم كتاب الله، وقد ظهرت أسباب ودوافع في هذا العصر قللت وأنقصت من دواعي الشعر وزادت من نقصانه وخفوته وانصرف المسلمون عنه تقريبا بشكل كلي ثم بانتصار الإسلام ودخول العرب في دين الله أفواجا وقفت مناخلات الشعر التي نهضت في عصر الرسول، والتي بقيت كبصيص أمل في عهد الرسّول صل الله عليه وسلم بين شعراء المشركين من قريش وشعراء الإسلام ولكن رغم أنها قلت بلا شك أنها نهضت بالشعر مرة أخرى ولو إلى حد ما وأرهقت القريحة الشعريّة لدى الشاعر، ثمّ بعد ذلك انصرف العرب في عصر الراشدين إلى الفتوحات فتح فارس والشام، ومصر، وأشركوا معهم أغلب الشعراء في الفتح الإسلامي وهذا ما جعل المحل الأول فيها للعمل دون القول واسيف دون الكلمة، وهذا لا يعني أن الشعراء الذين خرجوا للجهاد في سبيل الله، لم ينفعلوا بأحداث سلك الحروب والوقائع، التي شاهدوها فالواقع أن كل هذه المواقف والأحداث، أثرت في الشاعر وانفعل معها وهزّت شاعريته فاندفعت به إلى أن يفتخر بشجاعته، ويتباهى بالنصر وقام يصف المعارك التي خاضها وأحوال الجهاد، ومقاسات الحر والبرد وآلات القتال، والأمور الغريبة التي شاهدوها في أثناء خوضهم في ساحة الوغى أو الحرب.

وبكثرة هذه الأشعار التي تطلعنا على كتب الفتوحات ؟؟؟، رغم تدهورها ونقصها فهناك نجد من نظم في غرض الهجاء ويقول في مطلع القصيدة:

أَطعْنَا رَسولَ اللهِ إذ كانَ بيننا فَيَا لعبَاد اللهِ... مَا لأبكي بِكرُ؟

أَيورِثها بكرًا إذا مَاتَ بَعدهُ فَتِلكَ لعمر عَاصَمَةُ الله لَظهِر.[1]

وهذا عبد الله بن رواحة يقبل على إحدى المعارك فيشعر كأن نفسه تخشى الإقدام، فلجأ إلى نظم أبيات قائلًا فيها:

[1]– ينظر: عبد العزيز عتيق: في الأدب الإسلامي والأموي، ص،ص، 36.37.

أقسَمتِ يا نَفسُ لتَنْزِلَنّهْ لتَنْزِلَنّ أو لَتُكْرَهَنّهْ

إن أَجلَبَ الناسُ وشدُّوا الرَّنّة مالِي أراكِ تكرهين الجَنّةْ[1]

عبد الله بن رواحة عندما رأى من قبله استشهد ترددت نفسه وتراجعت عن النزول فراح يقسم عليها ويرغمها بالنزول إلى المعركة وحمل راية المسلمين.

وفي حين آخر يقول كعب بن رواحة وكان عثمانيا مشيرًا إلى مقتل عثمان مخاطبًا علي بن أبي طالب:

فَكَفَّ يَدَيهِ ثُمَّ أَغلَقَ بابَهُ وَأَيقَنَ أَنَّ اللَهَ لَيسَ بِغافِلِ

وَقالَ لِأَهلِ الدارِ لا تَقتُلوهُمُ عَفا اللَهُ عَن ذَنبِ اِمرِئٍ لَم يُقاتِلِ

فَكَيفَ رَأَيتَ اللَهَ أَلقى عَلَيهِمُ ال عَداوَةَ وَالبَغضاءَ بَعدَ التَواصُلِ

وَكَيفَ رَأَيتَ الخَيرَ أَدبَرَ بَعدَهُ عَلى الناسِ إِدبارَ السَحابِ الحَوافِلِ[2]

وهنا يقول يا نفس لطالما كنت مطمئنة بالإيمان وتحسنين لله ورسوله فكيف اليوم تكرهين الجّنة، وتركنين إلى زخرف الحياة الدنيا ،كلا ستنزل وسأرغمك على النزول.

فيقول آخر الهيثم بن التيهان في حدث آخر.

قل للزبير وقل لطلحة إنّنا نحن الذين شعارنا الأنصار

نحن الذين رأت قريش فعلنا يوم القليب أُولئك الكفّار

كنّا شعار نبيّنا ودثاره يفديه منّا الروح والأبصار

إنّ الوصي إمامنا ووليّنا برح الخفاء وباحت الأسرار[3]

وهاهنا في الختام، يمكننا القول بأن رغم كل ما طرأ على هذا الشعر من مؤثرات، إلا أنه انتقل إلى عصر آخر ونال منه ومن شعراءه ما لم يؤلف عليه سابقا أنه ظلّ في عهد الرسّول جاهليا وأن تأثره بالإسلام كان عرضيا في مجال ضيق، وكذلك الشأن بالنسبة لعصر الخلفاء الراشدين فهم لم يشجعوا الشعراء على قول الشعر حتى ينهض ويتطور ويزدهر ،وفي الأخير هذا ما أدى إلى ركوضه وتراجعه.

ثالثا– العصر الأموي:

يطلق العصر الأموي على الفترة التي تبدأ بخلافة معاوية سنة **416** هـــ، وتنتهي بغلبة العباسيين على بني أمية وانتزاعهم الخلافة منهم سنة 133هـــ، ويرجع استيلاء معاوية على الخلافة وتأسيس الدولة الأموية إلى الخلاف

[1] عبد العزيز عتيق: في الأدب الإسلامي والأموي، ص37.

[2] المرجع نفسه، ص، 38.

[3] المرجع نفسه، ص39.

الذي نشأ بين المسلمين بسبب الخلافة عقب وفاة المصطفى عليه الصلاة والسلام، فقد أدى هذا الخلاف إلى ظهور فرق إسلامية، ولكل فرقة منها رأيها الخاص فيمن هو أحق بالخلافة بعد الرسول عليه الصلاة والسلام، فبعدما ألحقت روحه صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى مباشرة تغيرت أحوال الأمة رأسا على عقب، نعم تغيرت القوانين فاختلفت المبادئ والقيم، فكان هناك من هو مؤيد ومن هو معارض، تعددت الآراء، واختلفت وجهات النظر وأخذ الزمن من هنا وهناك، فقد كان لوفاته أثرًا حادًا وسط المجتمع مما أدى غلى تغييره تغييرًا جذريا فنتج عنه صراعا وخلافًا حول الخلافة.

كان هذا الصراع من أقوى العوامل في نهضة الأدب والشعر في بني أميّة، وأنه أظهر شعراء في كل حزب يعبّرون عن وجهة نظر أصحابهم ورأيهم في خصومهم، فالإمام بحالة الشعر تستدعي إلقاء الضوء على الظروف التي ساهمت في هذا التطور والازدهار.فقد كان لهذا الاضطراب السياسي وهذه الخصومة أثرًا بليغا في ذلك.[1]

وذلك بتعدد عوامل مختلفة ومنها الدينية والاجتماعية والسياسية.

الحياة الدينية: شاعت في عهد بني أميّة روح دينية مستمدة من تعاليم القرآن وأخلاقياته، فروح قوامها الورع والزهد والنّسك والإيمان بعالم خارج عن حس للإنسان وشعوره، في هذه البيئة التي بدأت نزعة الزهد في الحياة تشيع جوانبها نشأة شعراء العصر الأموي ومعانيه وفضائله، وكان للدّين وتعاليمه أثرًا غير مختلف فقد غيّر المفاهيم وصقل التفكير ورتب المناهج، ثم إن دواوين الشعراء الأمويين جديرة أن تظهرنا على مدى تأثر أولائك الشعراء بالحياة الدينية الجديدة.

ويستطيع الدّارس أيضا أن يلمس أثر الرّوح الدّيني في شعر الغزل الأموي، ولا سيما العذري منه الذي بترع إلى التسامح والطهارة. ولم يكن تغير الشعر الأموي على هذه الصورة إلّا بنتيجة طبيعية لما طرأ على نفسية الشعراء، وهذا نلتمس أثر الحياة الدّينية في تطور الشعر الأموي.

الحياة العقلية: وكذلك أثر التطور العقلي إلى نشوء حركات علمية مختلفة أهمها الحركة الدّنية التي تبلور اهتمامها وتركيز نشاطها في مجال التفسير والحديث فما من شك في أن الاشتغال بأمور الفقه من حوار ونقاش وقد أثر في العقلية العربية، بمعنى أنه كان الحوار والتواصل و الاجتماع من أجل معالجة المواضيع وإيجاد حلول تناسب قضايا الأمة ،ونلاحظ مما سبق أن الشعر في العصر الأموي كان يصطبغ بكل ما يجري من جدل عقلي

[1]– د.عبد العزيز عتيق: في الأدب الإسلامي والأموي، 2001م/1422ه، دار النهضة العربية، ط1، بيروت، لبنان، ص113.

في بيئة الفقهاء من أصحاب المذاهب والفرق الدّينية المختلفة، وهكذا طرأ التفكير إلى الجدال وطرق الاستدلال لم تكن مألوفة في القديم ،فقد أصبح الشاعر ملما بطرق الجدال يستخدمها في شعره.

ومن مظاهر تطور العقلية العربية الجديدة في الشعر الأموي تجد الشعراء يتخصصون في موضوعات بعينها لا يعدونها لغيرها ،فعمر أين أبي ربيعة يقتصر شعره على الغزل وذو الرّمة يقتصر شعره على وصف الصحراء.[1]

الحياة الاقتصادية: ولا شك في أن نفسية الفرد تتأثر بحالته الاقتصادية الخاصة، وكذلك بالحالة الاقتصادية العامة التي تنظم البيئة التي تعيش فيها الشاعر، وإذا كانت نفسية الفرد تتأثر بظروفه المادية، فإن نفسية الشاعر التي هي أكثر حساسية تكون أشد تأثرا بهذه الظروف، إذا فضنك المعيشة وتدني المستوى المعيشي والمعاناة من شدة الحاجة والاحتياج يسهم في تغيير النفسية إلى الأسوأ وتقتل التفاؤل، فالشاعر الذي ينعم بسعة العيش ورغده يكون شأنه في الشعر غير شأن الشاعر الذي يقاسي من الحرمان والضيق وقسوة الحياة.

وأوضح مثال على ذلك ما نراه في تباين بين شعراء الحجاز ونجد، فنحن نرى في شعر المترفين من شعراء الحجاز صورة لما امتلأت به حياتهم من نعيم وترف ولهو، فهو شعر يتسم بالانطلاق والمدح والابتسام على حين يعكس شعر النجديين صورة لحياتهم الفقيرة البائسة وما يتخللها من حرمان ومعاناة وسوء المعيشة،فكل صفات الحرمان والمعاناة وسوء المعيشة والحاجة لها أثرها البالغ في كلّ الجوانب، فإن الفقر بما ينشأ عنه من حاجة وحرمان دفع الآخرين إلى اليأس والزهد في الحياة. ولعل ما ندرك من كل ما تقدّم مدى تأثر الشعر الأموي بالحياة الاقتصادية للأمة في عهد بني أمية، كما ندرك تمثيله لهذه الحياة الاقتصادية من جميع نواحيها وما أدخلته عليه من تطور.[2]

أما الشعر الذي استولى عليهم واستند بطاقاتهم الشعرية والفنية فهو شعر الغزل، وقد كانوا في نزوعهم إليه وإكثارهم منه وتقننهم فيه متجاوبين مع أنفسهم وأهوائهم وبيئتهم، وهي بيئة كل ما يشغل تفكير أغلب أهلها ممن ملكوا الثراء والفراغ والرقيق، وشاع بينهم الغناء واللّهو أن يعيشوا للاستمتاع والحب، وأن يعبروا عن تجاربهم النفسية ومغامراتهم العاطفية والوجدانية بألوان من الحب تغلب عليها سماء الحضارة والتجديد انصب كل اهتمامهم على غرض الغزل تبعا لأهوائهم واستعمال ألفاظ وتعابير تغلب عليها الحضارة والتجديد، فكان طبيعّيا لذالك أن يكثر شعراء الحب و الغزل في الحجازّ، وأوّل من تجزأ من الشعراء القريشيين في مكة

[1] – د.عبد العزيز عتيق: في الأدب الإسلامي والأموي، 2001م/1422ه، دار النهضة العربية، ط1، بيروت، لبنان، ص104.
[2] المرجع نفسه، ص60.

على التشبيب بالنساء عمر ابن أبي ربيعة وأبو دهيل، والعرجي والحارث بن خالد، وفي المدينة الأحوص، وقيس ابن ذريح والحجاز ،ثم يقفوا بشعر الغزل والتشبيب عما كان عليه في الجاهلية ، لقد كان الجاهلي لايتغزل أو يتشبب في غير حبيبته أو خطيبته، وكثيرا ما كان يسميها بغير اسمها صيانة لها من الابتذال وخوفا من أن يفتضح أمره معها فيمنعه أهله من التزوج بها، ذالك لأنه كان **غزل عذري عفيف نقي** مند نشوئه.

وكان زعيم الغازلين في ذالك العصر عمر ابن ربيعة، فقد فاق نظراؤه بسهولة الشعر وشدّة الأسر وحسن الوصف وإرسال شعره قصصا غزلية.

حتى كأنه إنما يدون فيه تاريخ قلبه، وأكثر هؤلاء الشعراء من التغني بالحب ووصف أغراضه وأحواله وانتشار الغناء، كان ابن سريح بن محرز ومعبد والعريض وابن عائشة وغيرهم يغنون في الحب من شعر تلك الطبقة، وكان الغناء من هذه الناحية قد أحال شعر الحب إلى عملية فنية يشترك فيها الشعراء والمغنين والمغنيات فقد اندح هذا الغزل الأموي من غزل الجاهليين بيدا أن هذا الغزل كان غرضا من أغراض القصيدة الجاهلية فقد وقف الشعراء عليه وخضع لتطور بارز فنشأ ما يسمى بالغزل العذري الذي كان عفيفا في أكثره، وكان شعرا عذبا سهلا.

يقول إسماعيل ابن يسار:

مَاعلَى رَسمِ منزلٍ بالجِنابِ لَوْ أبانَ الغُداةَ رجعَ الجَوابِ

غَيّرتهُ الصِبا وكلُّ مُلتْ دَائمَ الوُدقِ مُكفهرَ السّحابِ

دَارَ هندٍ وهل زَمانِي بهندُ؟ عَائدٌ بالهَوى وصفوَ الجَنَابِ[1]

يصف الشاعر فراقه بهند وشدة شوقه لإعادة اللقاء بها، ثم يئس وفقد الأمل في اللقاء من جديد. معبرا بكل ما يؤلمه وما يعذب قلبه صادق الإحساس والتعبير.

رابعا– البيئة الجغرافية لبادية الحجاز:

شبه الجزيرة العربية هي البقعة الممتدة بين البحر الأحمر غربا والمحيط الهندي جنوبا ، وخليج فارس شرقا والعراق وبلاد الشام شمالا على مساحة نحو 3 ملايين كلم مربع، وتنقسم هذه الرقعة الجغرافية إلى مناطق تختلف فيها طبيعة المناخ وطبيعة عادات وتقاليد أهل المنطقة وأبرز هذه المناطق:

[1]: ينظر: يوسف عطا الطريفي: شعراء العرب العصر الأموي، ط2،2009، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، شارع السفارات،ص، ص، 19.66.

أولا- الحجاز: وهو يحجز بين الشام واليمن، وهو في طريق قوافل التجارة، وأكثر الأرض حرارة وصحاري، ومن أمكنته وادي القرى ومن أشهر مدنه مكة وفيها الكعبة، والطائف ويثرب أو المدينة وخيبر والعلا وتيماء مدينة السمول.

ثانيا- نجد: وهو عبارة عن هضبة خصبة في وسط شبه الجزية، تكثر فيها الحرارة وهي من أطيب بلاد العرب مناخا وهواء خصبا.

ثالثا- العروض: يمتد من حدود نجد إلى خليج البصرة.

رابعا- تيهامة: وهي سهول رملية تحدد أطرافها الشرقية أودية جافة.[1]

وبالإضافة إلى هذا فقد ورد في أشعار العرب أسماء كثيرة لجبال وأودية وبقعا كانوا يترلونها، لكنهم نسوا في الأزمنة الأخيرة أكثرها.وأهمية الحجاز نشأت من وقوعه على الطريق التجاري الذي يربط اليمن ببلاد الشمال وعليه فقد كان لمنطقة الحجاز موقعا جغرافيا فعالا سمح بتنقل القوافل في المناطق المختلفة وأضحت منطقة عبور للسلع والقوافل التجارية مما ساعد في إبرازها كمنطقة مميزة عن باقي المناطق.[2]

يقول طه حسين بهذا الصدد(قسمت غرض الغزل على أقسام مختلفة، الأولى غزل العذريين الذين كانوا يتغنون في شعرهم هذا بالحب الأفلاطوني العنيف الجميل ، كعروة وقيس بن ذريح والمجنون الثاني غزل الإباحيين الذي أسميهم المحقيين، وهم الذين كانوا يتغنون الحب ولذاته العملية كما يفهمها الناس جميعا وزعيمهم عمر بن أبي ربيعة، ثم الغزل العادي الذي هو في حقيقة الأمر إلا استمرار للغزل القديم.فقد قسم طه حسين غرض الغزل إلى ثلاثة ألوان وأضاف لكل لون من الألوان اسما خاصا يتلاءم مع طبيعة النوع حتى يحقق المعنى المناسب، ثم سلط الضوء على نوعين اثنين وجعلهم مصدر الدراسة...يضيف، والعناية اليوم خاصة بالقسمين الأولين غزل العذريين من جهة وغزل الإباحين من جهة أخرى، وأحاول أن ألتمس الأسباب المختلفة التي أنشأت هذين الفنين. وأرجعها إلى عوامل دينية، سياسية، اجتماعية واقتصادية. ثم يقول: وألفت القراء إلى أن لا نجد هذين اللونين من الغزل في الشام ولا في العراق ولا مصر، وإنما نجدهما في الحجاز وما يليه من البلاد العربية، إذن، فما تفسير هذه الظاهرة؟ وما بالنا لا نجد الغزل بقسميه إلا في الحجاز وما يليه من البادية، ثم إن هذين النوعين من الغزل كانا متقاربين لا متجاورين.أريد أن العذرين والإباحيين كانوا جميعا في الحجاز وما يليه، ولكن لم يكونوا يعيشيون في بيئة واحدة، وإنما كان فريق منهم يحتضر وفريق منهم يبدو.

[1] حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، ط1. 196، دار الجيل، بيروت لبنان.

[2] أحمد أمين: فجر الإسلام، د ط، 1439ه /2018م، دار التقوى للطباعة والنشر والتوزيع، ص9.

فقد كان الإباحيون يعيشون في مكة والمدينة، أما العذريون فكانوا يقطنون بادية الحجاز. ثم يواصل في قوله...وفي الحق أن عمر بن أبي ربيعة كان مكيا قضى حياته في مكة،...وأن جميلا كان بدويا في وادي القرى، وأن ذريح كان بدويا يعيش في بادية المدينة ، وأن المجنون أن صحت أخباره كان نجديا في بادية نجد. فإذن إن الغزل بقسميه عربيا خالص، ولست أريد بهذا اللفظ معناه العام، وإنما معناه الجغرافي، أن هذا الغزل بقسميه قد نشأ في جزيرة العرب خاصة)[1]، فكان عفيفه في البادية وأما ما جنه في المدينة.

[1] طه حسين: حديث الأربعاء، دار المعارف،ط 15، 1119 كرنيش النيل 1920،ج 1، ص ص 187،189.

3- أنواع الغزل في الشعر العربي

تمهيد

الغزل في الحجاز لم يكن في منحنى واحد، إذا كان بين نمطين مختلفين غزل حضاري وغزل عذري،وهذا ما جعل الشعراء في هذه الفترة الزمنية بين تيارين متضاربين ما بين الشعراء البوادي وشعراء الحضر وهذا راجع إلى تلك الطبيعة التي كتب فيها الشعراء، وكذلك البيئة التي تواجد فيها، وبطبيعة الحال لكل غزل خصائصه التي تميزه وتجعله منفردا عن الآخر ويجعل ذلك التنوّع في الإنتاج الشعري في كل كتابة (الكتابة في الغزل الماجن والغزل العذري) ومن هنا نطرح التساؤل الآتي ما الفرق بين هذين الغزلين أي الغزل الإباحي والغزل العذري. ومحور دراستنا هذه هو الغزل العذري العفيف الذي كان له نصيب هو الآخر كبقية الأغراض وسنسلط عليه الأضواء من خلال تسلسل هذه العناصر.

ثالثا: أنواع الغزل وخصائصه

أولا: الغزل العمري وخصائصه

للغزل العمري عدّة تسميات منها: الغزل الصريح، الغزل الحسي، الغزل الماجن وصفات أخرى... وسنقتصر أن نسميه الغزل العمري نسبة إلى عمر بن أبي ربيعة زعيم هذه الطائفة باعتباره النموذج الذي تتمركز فيه خصائص هؤلاء العمريين...».[1]

أ- مفهوم الغزل العمري:

الغزل العمري:

هو تعبير عن طبقة متحرّرة منطلقة، تضع شهواتها وملذاتها فوق كل شيء وتلوب في حياتها تنشد هذه الملذات والشهوات... إنها لم تنسى نصيبها من الدّنيا ولكنها نسيت نصيبها من الآخرة، و لم تبتغ الدار الآخرة وإنما ابتغت الفساد في الأرض. [2]

*إن عاطفة الشاعر نجدها شهوانية يتغزل الشاعر بجسد المرأة ومفاتنها.

وفي موضع آخر «هو ذلك النوع العابث المرح السعيد، وإن كان سعيد لأن المحبين فيه يستطيعون أن يتلاقوا من وقت لآخر فيتبادلون الأحاديث من حاجات الهوى ونزوات الشباب، لم يخلو الشاعر بنفسه ليستعيد تلك الذكريات العذبة الجميلة، ولا يقف المحب فيه عادة عند فتاة واحدة حينا من الدّهر، بل تراه موزّع النّفس بين عدد كبير من النساء».[3]

فالغزل العمري تجده يميل إلى اللّهو والعبث والمرح

وفي موضع آخر: الغزل الحضري الإباحي هو التعبير عن العاطفة التي تكالبت على اللذّة في غير حرمان فأصبح حكاية حال ووصف ألوان وأشكال وذكريات في غير حنين، وتشكيلات في غير أنين وتصريحا في غير اقتصاد، وتلبية لكل هوى في غير تردّد ولا عناد، ومن تم فهو التجربة التي لا يصقلها الألم، ولا يحرق أنفاسها الوجد والجوى، وهذا النوع من الشعر يحفل بمظاهر الحضارة والأناقة وأساليب الإغراء والتحايل، ولكنه بعيد

[1]- شكري فيصل: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، مرجع نفسه، ص338.

[2]- المرجع نفسه، ص281.

[3]- محمد عبد العزيز الكفراوي: تاريخ الشعر العربي في صدر الإسلام وعصر بني أميّ، ج1، ص214.

عن أغوار النفس، يمتد في العرض والطول ضاحكا في آماله وأعماله حيا في حركاته وحواره، جذابا في لينه وغنائيته، إلا أنه ينقل التجربة المؤثرة التي تهز الكيان وتبعث الأشجان.[1]

ومن هذا المنطلق يكمن جوهر هذا الغزل في وصف المرأة ومحاسنها وكل تفاصيل جسمها كما يعبر الشاعر ها هنا، على أحاسيسها الدّقيقة واصفا مناجاة اللّقاء وصفا دقيقا تظهر فيه الدّراسة العميقة لنفسه المرأة وأسلوب تفكيرها وكذلك التصرّفات والحركات التي تصدر منها باللاشعور، فكل هذا يكن مصدر إلهام الشاعر ليطلق شيطانه في القول والتعبير.

ب- نشأته وأسباب ظهوره:

نشأ الغزل الحضري في الحجاز، مكة، المدينة والطائف، وقد نال شعراءه نصيبهم من ترف الحياة، فجاءت أوصافهم مادية حسية غير وجدانية. إنه غزل واقعي يعكس نفسية المرأة وحياتها المترفة، والشعراء الحضريون تغيب عنهم صفة الحب، فالشاعر لا يقتصر على محبوبة واحدة في شعر أسماء النساء بل يدّل على عدم صدق العاطفة والميل إلى العبث واللّهو.

وقد اشتهر هذا الغزل في العصر الأموي وهنالك عوامل ساعدت على انتشاره

1-انصراف كثير من شعراء الحجاز عن المشاركة في الحياة السياسية منذ أن انتقلت عاصمة الخلافة إلى الشام، مما حملهم على التفرّغ لشعر الغزل والاهتمام به.

2- شيوع الغناء في عواصم البلاد العربية وإقبال الناس عليه.

3- حياة الترف والرّخاء التي عاش فيها الشعراء حيث يقول شوقي ضيف «وهل نستطيع تفسير شيوع الغزل المادي الصريح في مدن الحجاز... إلا يرد ذلك إلى نعومة العيش وما كان ينعم به سكان تلك المدن».

ج- خصائص الغزل الماجن

من خلال دراستنا لبعض قصائد عمر بن أبي ربيعة الذي يعتبر زعيم هذه الحركة نستطيع أن نستخلص بعض السّمات لهذا الغزل.

1- **تعدد النساء:** فالشاعر العمري لا يكتفي بمحبوبة واحدة[2] حيث نجده يتغزل بهند في إحدى قصائده فيقول:

تِلْكَ هِنْدٌ تَصُدُّ لِلْهَجْرِ صَدّا أدلالٌ ، ام هجرُ هندٍ أجدا ؟

[1]- حنا الفافوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، ص444.

[2]- شكري فيصل: تطول الغزل بين الجاهلية والإسلام، ص446.

ويتغزل أيضا بامرأة أخرى يقول:

أَبْلِغْ سُلَيْمى بِأَنَّ البَيْنَ قَدْ أَفِدا وأَنْبِىءْ سُلَيْمَى بِأَنَّا رَائِحونَ غَدا

وَقُلْ لَهَا كَيْفَ أَنْ يَلْقَاكِ خَالِيَةً فَلَيْسَ مَنْ بَانَ لَمْ يَعْهَدْ كَمَن عَهِدا

نعهدْ إليك، فأوفينا بمعهدنا، يا أَصْدَقَ النَّاسِ مَوْعوداً إذا وَعَدا[1]

2- **العبث واللهو**

3-الاستعلاء والفخر[2]: حيث أن الشاعر تجده بنسبه أو ذاته.

4- السطحية: بمعنى أن الحب لا ينفذ إلى أعماق النفس لا يرتوي منها ولا يرويها.

5- تصوير مفاتنها دون خجل أو حياء.

ثانيا: الغزل العذري في الشعر العربي

ظهر الغزل العذري منذ العصر الجاهلي، حيث اشتهر الكثير من الشعراء بهذا الغرض الشعري أمثال عنترة بن شداد، وامرئ القيس وقد تعدّدت المفاهيم واختلفت الآراء حول مفهوم الغزل العذري.

أ- الغزل العذري:

هو غزل عفيف يصوّر فيه الشاعر مكابدة العشق وألم البعد عن الحبيبة، ولا يحتفل بجمال المرأة الجسدي بقدر ما يحفل بقوة أسرها وجاذبيتها، ويقتصر على محبوبة واحدة يخلص لها طول حياته.[3]

وهو«ضرب من الغزل الذي تشيع فيه حرارة العاطفة، وتشيع فيه الأشواق ويصوّر خلجات النفس وخرجات اللّقاء، وآلام الفراق ولا يحفل بجمال المحبوبة الجسدي بقدر ما يحفل بجاذبيتها وسحر نظراتها وقوة أسرها ثم يقتصر على محبوبة واحدة يخلص لها طول حياته».[4]

هو التعبير الفنّي الشعوري عن هذا الحب، إنه هذه الثورة الشعرية التي خلقتها، النّفوس المحبة التي تحلّت بالإيمان واتسمت بالعفة معا».[5]

---

[1]- شكري فيصل: تطول الغزل بين الجاهلية والإسلام، ص446.

[2]- المرجع نفسه، ص، ص ، 476.446.

[3]- هدى التميمي: الأدب العربي عبر العصور، دار الساقي شارع العويني، ط1، بيروت، لبنان،2015، ص87.

[4]- أحمد محمد الحوفي: الغزل في العصر الجاهلي، دار النهضة مصر لطباعة والنشر، القاهرة، (د ت)، ص144.

[5]- شكري فيصل: تطوير الغزل بين الجاهلية والإسلام، ص286.

هو النوّع الذي يعيش فيه العقل في إسار القلب إنه حب لا يخالطه برد التعقل ولا تضلّه سحب الفكر... إنه حبّ يمتاز بالحرارة الملتهبة...إنه الحب الذي يتصف بالحرارة الملتهبة والدّيمومة الدائمة والعفة المحصّنة... وهو المظهر الفنّي للعواطف المتعفّفة والملتهبة.[1]

نلاحظ أن الغزل العذري هو غزل ناقي وطاهر، غزل متبادل بين الرجل والمرأة، يخلص لبعضهما مدى الحياة رغم البعد والفراق الذي يعاني منه.

ب- نشأة الغزل العذري

ينتسب هذا الغزل إلى بني عذرة إحدى قبائل **قضاعة** التي كانت تنزل في وادي القرى شمال الحجاز لأن شعرائه أكثروا التغني به ونظمه، ويروى أن سائل سأل رجلا عن هذه القبيلة ممن أنت؟ قال: من قوم إذا عشقوا ماتوا ... ولم تقف موجة الغزل العذري لهذا العصر عند عذرة وحدها، فقد شاع في بوادي نجد والحجاز، وخاصة بن عامر[2]

.بمعنى هذا أن الغزل العذري ظهر في قبيلة بن عذرة وبنوا عامر

ولقد اختلفت آراء الباحثين حول نشأة الغزل العذري فهناك من يرجعه إلى العصر الجاهلي وهناك من يرجعه إلى صدر الإسلام والعصر الأموي

ويرى أحد الباحثين أن الغزل العذري«لم ينشأ في العصر الإسلامي، ولم يكن فنا مستقلا في العصر الإسلامي، وإنما وكان فنا مستقلا في العصر الجاهلي»[3].بمعنى أن الغزل كان وليد العصر الجاهلي

وأضاف باحث آخر قائلا: « أن الغزل العذري الذي نشأ في العصر الأموي إذ يقول: »لقد وجد الشعراء في العصر الأموي استعداد الترحيب بهم، وفي قصور الأمويين صدع الشعراء بالشعر، كما كان يصدح أسلافهم في بلاط الحيرة وغسان...«[4].بمعنى أن الغزل كان وليد العصر الأموي.

ويقول آخر: «تعود جذور الغزل العذري الذي شاع وانتشر أيام بن أمية إلى العصر الجاهلي ممثلة في الشعراء "المتيمين" الذين وضعوا اللبنة الأولى في صرح هذا اللون من الحب»[5] من خلال هذا القول نلاحظ أن الغزل العذري تعوذ جذوره إلى العصر الجاهلي ولكنه شاع وانتشر في العصر الأموي.

---

[1]- شكري فيصل: تطوير الغزل بين الجاهلية والإسلام، ص277-278.

[2]- الدكتور شوقي ضيف: سلسلة تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، دار المعارف للطباعة والنشر، ط20، القاهرة، ص359.

[3]- أحمد الحوفي: الغزل في العصر الجاهلي، ص159.

[4]- المرجع نفسه، ص158.

[5]- حسين جبار محمد الشمسي: الغزل في عصر صدر الإسلام، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2002، ص41.

ويرى شكري فيصل: أن الغزل العذري « لم يكن من الممكن أن يظهر بقدسيته وطهارته قبل عصر بن أمية... ولم يكن من الممكن أن يظهر في عصر الخلفاء الراشدين بالرغم من أن تمثل التقى والصلاح ولكن استند وضوحا في عصر الأمويين».[1]

بمعنى أن هذا الغزل العفيف كان موجودا منذ العصر الجاهلي إلا انه برز وأصبح لونا قائما بذاته أيام بني أمية بسبب ما آلت إليه الظروف آن ذاك.

ج- أسباب ظهوره

اختلف النقاد والباحثون حول أسباب نشأة الغزل العذري، حيث كل واحد ونظرته الخاصة له فهناك من يرجع سبب ظهوره إلى سبب ديني وفقط وهناك من عدد في الأسباب منها الحضاري والديني والاجتماعي والسياسي، ورغم الاختلاف في الأسباب إلا أن هناك تداخل بين هذه الأسباب حيث السبب الاجتماعي أثر على الأسباب الأخرى وذلك لترابطه بالبيئة التي تجسد في العلاقات الاجتماعية، والسلوك الاجتماعي، وبهذا يمكننا أن نتعرف على هذه الأسباب من خلال آراء بعض الناقدين.

1-السبب الديني:

كثير من النقاد الباحثين يقرون أن السبب الرئيسي لوجود هذه الحركة العذرية هو الدافع الإسلامي وذلك للارتباط الوطيد بالإسلام.

إن طه حسين هو أول ناقد أشار إلى ذلك حيث قال:« وكان أهل البادية .... قد تأثروا بالإسلام وبالقرآن خاصة، فنشأ في نفوسهم شيء من التقوى ليس بالحضري الخالص، ولكن فيه سذاجة بدوية وفيه رقة إسلامية فانكبوا عليها واستخلصوا منها نغمة لا تخلوا من الحزن... وأنهم انصرفوا إلى شيء من المثل الأعلى في الحياة الخلقية»[2]

وقوله:«إن حياة البدو متأثرة بالقرآن الكريم وما فيه من دين وخلق وأدب وحكمة ونظام»[3] فالغزل العذري ارتبط ارتباطا قويا وتأثر تأثيرا عميقا بالقرآن الكريم وذلك في قوله «إن الغزل الإسلامي العذري أضاف إلى المادة شيء آخر جعله قوام الشعر، نريد به الحب نفسه وما يترك في القلب من أثر، وما ينبعث في النفس من عاطفة وما يسبغ على المحب من كآبة وحزن، وما يحي فيه من أمل ورجاء...»[4]

---

[1]- شكري فيصل: تطوير الغزل بين الجاهلية والإسلام، ص274.

[2]- طه حسين: حديث الأربعاء، ص190.

[3]- المرجع نفسه، ص221.

[4]- المرجع نفسه، ص280.

وقوله أيضا «أن الغزل في الجاهلية جسم المرأة وأصبح في الإسلام نفس العاشق... ومن هنا كان المسلمون القدريون يصفون المرأة كم ينبغي أن يصفها إنسان يشعر ويحس ويمتاز بشيء من الشعور والحس لا يخلو من الرقة ورقي معا ...ولم تكن المرأة عند هؤلاء الشعراء حاجة تطلب أو شيء يطمح فيه وإنما كانت شطرا من النفي لا تطيب للنفس حياة إلا به، وهذا رقي عظيم.وعلى أن العقل العربي والشعور العربي عندما بلغ هذا الطور من تصور المرأة والحكم عليها والميل إليها، كانا قد جاوزا كل المجاوزة طور الوحشية التي كان يعيش فيها الجاهليون، وليس غريبا أن يعظم الفرق بين هذين الطورين فقد كان بينهما القرآن، وأثر القرآن في نفوس المسلمين عظيم»[1]

فإن الإسلام عند مجيئه طهر النفوس ورقق القلوب وهدب ألفاظ الشعر لهذا أصبح يسمى الغزل العفيف الطاهر أما الجاهلون فهم لم يحسنوا فهمه و لم يستطيعوا تأليفه.

«الغزل العذري تعبير عن وضع طائفة من المسلمين، كانت تتحرج وتذهب مذهب التقى، وتؤثر السلامة والعافية على المقامرة والمخاطرة، «إن النفس لأمارة بالسوء»[2] وان النار قد حفت بالشهوات على حد تعبير الحديث الشريف، وأنه من الخير لها أن تصبر«...مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ...»[3]

وأن تلتزم ما أمر الله به أن يلتزم «وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله»[4] ولذلك أثرت هذه الطائفة أن تعدل عن شهواتها، فكانت مثلا واضحا لتربية الإسلامية في سموها وتعاليها ففي هذه الآية الكريمة علاقة بين الغزل العذري والإسلام، حيث تأمر بمساعدة الفقراء الذين لا يستطيعون الزواج لشراء مهر زواجه.

أما شوقي ضيف فيقول«و لم تقف موجة الغزل العذري لهذا العصر عند عذرة وحدها، فقد شاعت في بوادي نجد والحجاز، وخاصة في بني عامر، حتى ليصبح ظاهرة عامة تحتاج إلى تفسير، ولا شك في تفسيرها يرجع إلى الإسلام الذي طهر النفوس وبرأها من كل إثم... وهي لم تعرف الحب الحضري المترف ولا الحب الذي تدفع إليه الغرائز فقد كانت تعصمها بداوتها وتدينها بالإسلام الحنيف ومثاليته السامية... وإنما تعرف

[1]- طه حسين: حديث الأربعاء، ص280.

[2]- سورة يوسف الآية53، شكري فيصل: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، ص280.

[3]- سورة الكهف الآية28.

[4]- سورة النور االآية 33.

الحب العفيف السامي الذي يصلى المحب بناره ويستقر بين أحشائه»[1] من خلال هذا القول نلاحظ أن الغزل العذري انتشر في البوادي وذلك لأن أهل البادية تأثروا بالإسلام واتبعو ما جاء فيه من تعاليم فأصبح حبهم نقي.

ويقول عبد القادر القط« الحق أن هذه العفة قد تصلح تفسيرا لبعض الظواهر النفسية المؤلفة في شعر هؤلاء الشعراء من الزهادة البالغة والرضا ممن تحبون بأقل من القليل، ولكنها لا تكفي وحدها ولنعلل بها نشأة هذا الشعر بمقوماته العامة وظهور هذه الطائفة من الشعراء الذين يدورون في فلك التجربة العاطفية وحدها ولعلنا لو التمسنا بعض الأسباب الأخرى إلى جانب هذا السبب الديني، نستطيع أن نقدم صورة أكثر اكتمالا وشمولا لتلك النشأة، وذلك لأن علة واحدة لا تكفر وحدها لظاهرة كبيرة كالغزل العذري »[2] فالسبب الديني وحده لا يكفي كي نعرف سبب نشأة الغزل العذري إن هناك عوامل أخرى حضارية وسياسية واجتماعية وخلاصة القول عن السبب الديني أن الغزل العذري تأثر بالقيم الإسلامية والخلقية.

2-السبب الاجتماعي:

يعتبر السبب الاجتماعي من أهم الأسباب التي ساهمت في بناء الغزل العذري حيث يقول الدكتور عبد القادر القط « ومن يتتبع قصص هؤلاء الشعراء وأحوالهم يدرك أن فشلهم لا يعود إلى أسبب دينية وخلقية بقدر ما يرجع إلى عوامل ترتبط بتقاليد المجتمع العربي وقيمه حين ذاك فيما يتصل بعلاقة الرجل والمرأة»[3] العلاقة بين الرجل والمرأة في البيئة المحافظة إن صح التعبير مستحيلة أو شبه مستحيلة يرجع ذلك إلى عاداتهم وتقاليدهم التي يسيروا عليها، فالمرأة عندهم لا يتحدث إليها الرجل وذلك بسبب حيائهم وخوفهم من عذاب الله تعالى.

إن الرقباء والواشين يحاولون أن يتعقبوا محبين الغزل العذري ذلك لأن العذريين «أعفة يسعى الرقباء والوشاة إليهم ويتعقبونهم في كل مكان»[4] فالوشاة والعذريون في صراع دائم حيث الوشاة يحاولون الحط من قيمة العذريين وسبب ذلك هو روحهم المحافظة.

[1]- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، ج، ص360.
[2]- عبد القادر القط: في الشعر الإسلامي والأموي، ص81.
[3]- المرجع نفسه، ص82.
[4]- المرجع نفسه، ص84.

3- السبب السياسي:

تعتبر السياسة من أهم العوامل التي ساعدت في ظهور الغزل العذري، فالسبب الديني والاجتماعي غير كاف لاكتمال نشأته والسياسة عامل مهم.

يرى الدكتور طه حسين أن الشعر العذري وليد الظروف السياسية تميزت بها الفترة الأموية، حيث«نستطيع أن نستنبط أن بلاد العرب- بعد أن تم الفتح للمسلمين، وبعد أن جاهدت في الاحتفاظ بالسلطان السياسي، وأخفقت في الجهاد إخفاقا شنيعا، وانتقل مركز الحكم منها إلى الشام، كما انتقل مركز المعارضة منها إلى العراق.

انصرفت أو كادت تنصرف عن الاشتراك في الحياة العامة، وفرغت للحياة الخاصة، فانكبت على نفسها وأنشأت شيئا من اليأس والحزن غير قليل فهي كانت مهد الإسلام ومصدر قوته، ومنها انبعثت الجيوش الفاتحة التي أخضعت الأرض وأزالت الدول، وفيها نشأت الخلافة ومنها امتد سلطان الخلافة على الأرض ثم هي ترى نفسها جردت من كل شيء، فانتقلت عاصمة الخلافة إلى الشام، وانتقل جهاد الأحزاب السياسية إلى العراق وأسماء الخلفاء إلى الشام ظنهم ببلاد العرب،فعاملوها معاملة شديدة قاسية...».[1]

فالحجازيون أحسوا بالحزن واليأس بعد أن حرموا من السلطة التي انتقلت إلى الشام والمال الذي ضاع منهم.

ويقول عبد القادر القط «وقد كان الفقد عند الشاعر الجاهلي يتمثل في الأطلال وذكرياتها، وكان يثير عند الشاعر من حنين أكثر مما يثير من الحزن لأنه صور متجددة في كل موسم ترتبط بالحياة والحركة وإن انتهت إلى الفرقة، فالطلل رمز لوقت سعيد على فقد أعم من تلك التجربة الفردية، لكن الشاعر كان يحس أن الارتحال المستمر نمط طبيعي لحياته في الصحراء فلا بأس من أن يخلف وراءه ربوعا تستحيل إلى أطلال ما دام سيقبل على ربوع جديدة عامرة بالحياة والناس ...».[2]

إن الشاعر العذري الجاهلي متمسك بالأطلال ومتأثر بها من أي شاعر آخر، وذلك لأن الطلل يمثل له صورة واقعية عاشها فهو إذن لن يتخلى عنها مدى الحياة.

[1]- طه حسين: حديث الأربعاء،ج1، ص، ص188،189.

[2]- عبد القادر القط:في الشعر الإسلامي والأموي، ص103.

وقوله أيضا « ولا نكاد نجد ظلا للحياة والمجتمع في شعر هؤلاء الشعراء إلا بمقدار ما يوحي بالخصومة الدائمة العامة بينهم وبين تقاليد ذلك المجتمع» فالشاعر العذري في خصومة حول الظلم الذي يعيش فيه المجتمع من طرف الدولة.

وعلى هذا فإن « هؤلاء الشعراء يمثلون نوعا من "المواجهة" بين الحب والتقاليد المجتمع ومفهوم ذلك المجتمع عن الحب... ولعلنا نستطيع أن نضيف أن هذا الرفض يمكن أن يتجاوز الحب إلى وضع الأفراد في المجمع بوجه عام بعد أن أصبح مجتمعا يخضع لقوانين وشرائع واضحة تقوم على تنفيذها الحكومة المنظمة وتتطلب من الفرد أن يتنازل عن كثير من حريته السابقة».[1]

فالظلم الذي يعاني منه المجتمع العذري يكون سبب الظروف الاجتماعية المفروضة عليه وذلك بفعل قوانين مفروضة عليه حتى طرف الدولة بمعنى أن الإنسان هناك لا يتمتع بالحرية التامة.

4- السبب الحضاري

السبب الحضاري كان له دور كبير في نشوء الظاهرة العذرية وازدهارها وذلك بسبب التطورات التي عاشها المجتمع في صدر الإسلام والعهد الأموي وهذه التطورات اختلفت من بيئة إلى بيئة أخرى.

«إن السبب الاجتماعي والديني والسياسي أدى إلى تشكيل السبب الحضاري وذلك حسب ما أكده لنا الدكتور طه حسين حيث يرى أن الغزل العذري نشأ عن طريق الاضطراب السياسي في العصر الأموي، فمثلا شعراء الحضر يلهون كما يلهو كل يائس، وأما أهل البادية كانوا يائسين وفقراء، لم يتح لهم اللهو، وقد حيل بينهم وبين الحياة الجاهلية حيث تأثروا بالإسلام، وانصرفوا عن حروبهم الجاهلية وعن حياتهم العملية في الإسلام، فانكبوا على أنفسهم واستنبطوا منها نغمة لا تخلوا من حزن، فكان الغزل العذري هو سعي البادية وذلك بسبب عدم توفر الفساد الذي كان موجود في المدن».[2]

ويفسر الدكتور عبد القادر القط هذا المعنى بقوله: «والحق أننا إذا أردنا أن ندرس تلك الظاهرة الفنية وصلتها بالمجتمع والعصر، لا ينبغي أن نقف عند تعبيرها الظاهري عن عواطف الحب، فليس من المعقول أن ينشأ هذا العدد الكبير من الشعراء العذريين الذين ينفقون في التجربة العاطفية وصور التعبير عنها، دون أن يكون لذلك جذور أعمق مما نراه على سطح تلك الصور والمعاني الشعرية، المشتركة بين هؤلاء الشعراء، وليس من ضير في أن نلمس في هذا الشعر دلالات ورموزا تتجاوز التجربة العاطفية... ولو تدبرنا ما نصادف من

[1]- عبد القادر القط:في الشعر الإسلامي والأموي، ص90.

[2]- ينظر طه حسين، حديث الأربعاء، ج1، ض189،190.

بعض الصور بالعاطفة عند هؤلاء الشعراء لأحسسنا أنها لو انتزعت من صيغتها، يمكن تكون تعبيرا عن معان ومشاعر أكثر شمولا، قد نجد في الشعر الجاهلي امتيازات قليلة عابرة إلى اليأس، ولكننا نواجه في الشعر العذري بكثير من الحديث عنه حديثا يوحي بأنه يتجاوز عاطفة الحب، دون تعسف في التأويل».[1]

من خلال هذا القول نلاحظ أن الأسباب التي درسناها سابقا الدين والاجتماعي والسياسي تساهم في تشكيل السب الحضاري أي علاقتهما علاقة ترابط كل واحد يكمل الآخر.

يواصل الدكتور طه حسين حديثه عن الغزل الحسي، والأسباب الحضارية التي كانت سببا في نشأة الغزل العذري حيث يقول «إن هذين القسمين من الغزل كانا متقاربين ومتجاورين، أريد أن العذرين والإباحيين كانوا جميعا في الحجار وما يليه ولكنهم لم يعيشوا في بيئة واحدة، وإنما كان فريق منهم يتحضر، وفريق منهم يبدو ، فأما ... الإباحيون فكانوا في مكة والمدينة، وأما العذريون فكانوا في نجد والحجاز.[2]

ويقول محمد عبد العزيز الكفراوي لقد كان للبيئة تأثير فعال في ظهور هذين اللونين من الغزل «فالمرن أكثر صلاحية لظهور الغزل الحسي اللاهي، لسهولة الاتصال بين المحبين فيها، وتراخي قبضة الرجل على المرأة، وضعف التقاليد البدوية القديمة التي تحوط بالمرأة بسياج من الغيرة كثيف»[3] وهذا راجع إلى أن مجتمع الغزل الحسي على علاقة بأسباب حضارية التي غيرت الواقع المعاش.

ويذهب طه حسين في قوله: « أما في البادية فكان الغزل عفيفا، لان العرب هناك لم يعرفوا الحياة المتحضرة في مكة والمدينة، وما ينطوي فيها من لهو وعبث ومن تحلل أحيانا من قوانين الخلق الفاضل، وهي من أجل ذلك لم تعرف الحب الحضري المترف لأن بدويتها وتعلقها بالإسلام قد منعها من الاقتراب من هذا اللون من الغزل اللاهي»[4] من خلال هذا القول نفهم أن سبب ظهور الغزل العذري في البادية هو أنها بيئة غير متحضرة.

كذلك يرى الدكتور محمد عبد العزيز الكفراوي أن الأسباب التي أدت إلى نشأة الغزل العذري في البوادي هي« قلة الاختلاط فيها وصعوبة الاتصال، وعنف التقاليد وقسوتها، وقلة حفها من وسائل الترفيه التي تنتشر في المدن، كمجالس الغناء وفيها يختلط الرجل بالمرأة فيستمع إلى غنائها، ويتمتع بمحادثتها دون حرج أو

[1]- عبد القادر القط، في الشعر الإسلامي والأموي ، ص97،98.

[2]- طه حسين: حديث الأربعاء، ج1، ص187،188.

[3]- محمد عبد العزيز الكفراوي، تاريخ الشعر العربي في صدر الإسلام وعصر بني أمية، ج1، مصر، ص216.

[4]- طه حسين، ص189.

تضييق»[1] هذا راجع إلى أن المجتمع البدوي لا يتمتع بالحرية الكاملة التي نجدها في الحضر وكذلك راجع إلى عفة البادية ورقة الحضارة.

ثانيا: خصائص الغزل العذري:

للغزل العذري خصائص تميزه عن الأنواع الأخرى ومن بين هذه الخصائص نجد:

1-العفة والطهارة:

وهي أول صفات الحب العذري وأبرز علاماته وذلك بسبب انصراف الشعراء عن الملذات والشهوات: وتحصينهم للعفة.[2]

2-وحدة الموضوع:

وهي سمة واضحة حيث يكون موضوع الشاعر وأحاسيسه التي يبادلها لحبيبته على مستوى القصيدة هو موضوع الغزل من بداية القصيدة إلى نهايتها، وهؤلاء الشعراء قد التزموا بوحدة الموضوع فيما شغلهم هو تفكيرهم في الحبيبة التي تعلقوا بها.[3]

3-الحرمان:

الحرمان هو الظاهرة المسيطرة على رجاله فلا يتحدثون في أشعارهم على التجارب السعيدة، كما يفعل شعراء الغزل الحسي بل يتحدثون عما أصيبوا به من الحرمان.[4]

4- الإكتفاء بمحبوبة واحدة:

فقد اقتصر الشاعر العذري في غزله لحبيبة واحدة، حيث يكون الوفاء وصدق المشاعر والإخلاص فلا يكون الشاعر مشغولا إلا بتلك المحبوبة، حتى لو تزوجت يبقى قلبه مخلصا لها

5- أن العواطف فيها أعمق، والانفعال أعنف وذلك لأن الحرمان يرسب العواطف و يمكن جذورها من النفس البشرية.[5]

6- الشوق والحنين: فحديثهم المستمر عن الشوق والحنين.[6]

---

[1]- محمد عبد العزيز الكفراوي، تاريخ الشعر العربي في صدر الإسلام وبني أمية، ص216.

[2]- ينظر شكري فيصل : تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، ص287.

[3]- ينظر محمد صلاح غيد: الغزل العذري، حقيقة الظاهرة وخصائص الفن، مكتبة الآداب، القاهرة، ص58.

[4]- عبد العزيز الكفراوي: تاريخ الأدب العربي، في صدر الإسلام والعصر الأموي، ص242.

[5]- محمد عبد العزيز الكفراوي: ص242.

[6]- المرجع، نفسه، ص242.

7- الحزن والتشاؤم: حيث أن الغزل العذري عرف بالنزعة التشاؤمية وذلك بسبب وصفه لأحزانه وآلامه.

وخلاصة القول:

أن الأسباب التي أدت إلى نشأة الغزل العذري (الدينية والسياسية والاجتماعية والحضارية) مترابطة ومتماسكة وكل سبب مكمل للآخر.

الفصل الثاني: شعرية التباريح عند المجنونين

أولا: الدلالة اللغوية لمصطلح التباريح

ثانيا: أنماط التباريح

ثالثا: جماليات التباريح

أولا: شعرية التباريح عند المجنونين:

نبدة عن حياة الشاعرين:

قيس بن الملوح:

قيس بن الملوح الملقب بمجنون ليلى(24هـ/645م-68هـ/688م)بن معاد أحد بن جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، شاعر غزل المتيمين، من أهل نجد، لقب بالمجنون لهيامه بحب ليلى بنت سعد.[1]

شعره:

لقيس بن الملوح شعر مبثوث في كتب الأدب، وقد أضيف إليه كثيرا مما نظمه الشعراء في الغزل وفي ذكر ليلى.

فالمجنون إذا مصور بارع لحال المحب وما يعاني من ألم، الفراق، وفي شعره لمحات خاطفة في التحليل النفسي تخلو من العمق وإن لم تخلُ من العذوبة والسذاجة، وفي شعره رقة وما بعد رقة وسهولة فيها من الروعة شيء كثير.[2]

قيس بن ذريح:

هو قيس بن ذريح، بن سنة، بن حذافة، بن طريف، بن عتوارة، بن عامر، بن ليث، بكر بن عبد مناة وهو علي بن الحنانة، بن خزيمة، بن مدرعة، بن الياس، بن مدر، وقيل هو قيس بن ذريح، بن الحباب بن سنة. كان يلقب بأبي يزيد ويكنى بالليث نسبة إلى جده ليث بن بكر.

ولد في إحدى سنتي الرابع أو السادس هجري أو بينهما، أو قبل الرابعة للهجرة أو بعد السنة السادسة للهجرة بقيل أيضا، إلا أن ولادة قيس لم تثبت بدقة متناهية لدي المؤرخين.[3]

---

[1] حنا الفاخوري- الجامع في تاريخ الأدب، مرجع سابق، ص259.

[2] المرجع نفسه، ص 300.

[3] قيس بن ذريح: ديوان قيس لبنى، دار الكتاب العربي، ط2، 1416ه/1996م، بيروت، ص1.

تمهيد:

حفل الشعر العربي بالكثير من الحالات النفسية التي تبرز داخل القصائد من خلال تلك الألفاظ والعبارات التي تعبر عن الخلجات والانفعالات على تنوعها ما بين دلالات الفرح والحزن، باعتبار أن لا يمكن بتاتا الفصل بين العمل الأدبي و-الشعر- ومكوناته النفسية، وأيضا باعتبار أن الشاعر العربي، كان يكتب القصيدة من خلال تجاربه الحياتية المليئة بكل مكامن المعاناة والمحفزات المساعدة على الكتابة الشعرية، وموضع حديثنا هنا يستلزم التطرق إلى مجموعة من التباريح في كل من ديواني الشاعرين قيس بن الملوح وقيس بن ذريح.

الديوانين احتويا على تبريحات جاءت في شكل ثنائيات مختلفات في المفاهيم ومتشابهات في المعاني والدلالات، حيث احتوت هذه المصطلحات ما بين شوق وحنين، شكوى ويأس، إضافة إلى غربة وهجر وعذل وما هو مؤلم كذلك.

وهي في العموم تباريح كانت نتيجة لمتطلبات ذلك الانعكاس للحالات النفسية البارزة داخل الأدب بصفة عامة والشعر بصفة خاصة.

– الدلالة اللغوية لمصطلح التباريح:

جاءت في القاموس عربي عربي لمحمد لحام مصطلح التباريح من كلمة "بَرَحَ، بِرْحأ وُبرُوحًا غَضب، بَرَّحَ به لأمر وأتى به، الحمى أصابته بَرْحَاؤهَا شدتها والبُرحَاءْ الشدة والشفاء، والتباريح الشدائد وتباريح الشوق توهجه."[1]

أخذ مصطلح التباريح حيزا كبيرا في دواوين الشعراء، وذلك لما لها من أثر بليغ حقق القيمة الجمالية المرجوة داخل القصيدة.

و جاء في محيط المحيط لبطرس البستاني كلمة "بَرَحَ الرجل يَبْرُحُ بَرْحًا غضب، وَبَرحَ مكانه ومن مكانه يَبْرَحُ بَرْحًا وُبَرًاحًا أي أزال عنه وصار في الْبُراح والبُرَاحْ المتسع من الأرض لا زرع فيها وأَبْرَحَ يأتي للتفصيل فيقال هدا الأمر أَبرحُ من هذا أي أشد، والتباريح جمع تبريح وهو الشدة وقيل التباريح كلفة المعيشة ومشقتها وتباريح الشوق توهجه"[2]

وكان لهذه التباريح بروزا داخل القصيدة حسب تنوع المواضيع المتناولة في كل مرة كتجارب خيانة يعيشها الشاعر، وتتجلى ظاهرة، التباريح في الشعر العربي من خلال تلك الأحاسيس التي تختلج الوجدان وما يترتب عن النفس من آهات مؤلمة تطغى على شعور الشاعر.

ثانيا: أنماط التباريح وجماليتها في ديواني المجنونان

البين لغة:

جاء البين في كلام العرب على وجهين: يكون البين الفرقة ويكون الوصل، بَانَ يَبِينُ بَينًا وبَيْنُونَةً وهو من الأضداد وشاهد البين الوصل. [3]

البين: هو البعد والفراق، وبانت المرأة عن الرجل أي انفصلت عنه.

وفي معناه العام :

البين: هو انفصال شخصين عن بعضهما البعض وإنهاء العلاقة التي كانت تجمعهما سواء كانت بإرادتهما أو الظروف القاسية التي أجبرتهما، هذه الكلمة السهلة النطق والصعبة التحمل تحمل في طياتها الألم والحزن في قلب كل محب طعمه مر وأي واحد لا يستطيع أن يتهرب منها، وهو الشيء الوحيد الذي يقهر كلا الطرفين، ويجلهما

[1] محمد لحام ، قاموس عربي عربي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 2007، ط2، ص50.51.

[2] بطرس البستاني، محيط المحيط، مج 1، دار الكتب العلمية 1634م-1300ه-1159-113م ص، 316، 317. مادة برح.

[3] أبو الفضل جمال الدين بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، ص195.196.

لا يستطيعان تحمل العيش وهذا ما يحدث مع قيس بن الملوح وبن ذريح اللذان انفصلا عن حبيباهما وعاشا حزن وألم وحسرة وندم.

1- تبريحة البين :

أ- عند قيس بن ذريح

شاء القدر ورحلت لبنى، نعم رحلت ولا أمل في رجعتها أبدا بعد اليوم، وأصبح شبح البين والوحدة يطارد قيس بن ذريح، بل ويرافقه كل وقت وحين، وفي يوم كئيب حزين، خرج قيس إلى الصحراء يتمشى وبينما هو في طريقه، إذ يتفاجأ بغراب يسقط بالقرب منه وجعل ينعق مرارا على بين لبنى فتشاءم منه قيس، وتطير منه وقال:

لَقَد نادى الغُرابُ بِبَينِ لُبنى فَطارَ القَلبُ مِن حَذَرِ الغُرابِ
وَقالَ غَداً تَباعَدُ دارُ لُبنى وَتَنأى بَعدَ وُدٍّ وَاِقتِرابِ[1]

عبر الشاعر عن ضيقه وكآبته، فقد كان الفراق وبعد لبنى غصة في حلق قيس، وألما شديد يعاني منه والبعد عليه صعب، ووصف حدة ألم بعد لبنى أنه وصل إلى الغراب ونادى به، وتهيج قلب قيس منه نداءه.

أقترب قيس من الغراب قليلا ثم تحدث إليه قائلا:

ألا يا غُرابَ البَينِ هَل أَنتَ مُخبِري بِخَيرٍ كَما خَبَّأتَ بِالنُؤيِ وَالشَرِّ
وَخَبَّرتَ أَن قَد جَدَّ بَينٌ وَقَرَّبوا جِمالاً لِبَينٍ مُثقَلاتٍ مِنَ الغَدرِ[2]

في هذه الأبيات، يخاطب قيس الغراب، ويطلب منه أن يخبره بخبر مفرح، ردا على الخبر المحزن خبر البين والبعد.

ثم يعود قيس إلى الغراب، وطار الغراب وحلق في السماء فأنشد:

وَطارَ غُرابُ البَينِ وَانشَقَّتِ العَصا بِبَينٍ كَما شَقَّ الأَديمَ الصَوانِعُ
وَطَارَ غُرَابُ البَيْنِ وَانْشَقَّت العَصَا بِبَيْنٍ كَمَا شَقَّ الْأَدِيمَ الصَّوَالِعُ
أَلَا يَا غُرَابَ البَيْنِ قَدْ طِرْتَ بِالَّذِي أُحَاذِرُ مِنْ لُبْنَى فَمَا أَنْتَ صَانِعُ[3]

[1] قيس بن ذريح، ديوان، ص31.
[2] المرجع نفسه، ص48.
[3] المرجع نفسه، ص52.

يعبر الشاعر من خلال هدا المقطع الشعري عن حالته النفسية، فقد يئس وفقد الأمل، وتفرق الأمر، و لم يعد في الحياة فرصة.

- ظل قيس يتذكر الحوار الذي جمعه مع الغراب، فأستأنس به بعد رحيله، وبدأ يتذكر ما دار بينهما ثم قال:

أَلا يا غُرابَ البَينِ لَونُكَ شاحِبُ وَأَنتَ بِلَوعاتِ الفِراقِ جَديرُ

فَإِن كانَ حَقّاً ما تَقولُ فَأَصبَحَت هُمومُكَ شَتّى بَثُّهُنَّ كَثيرُ[1]

إن الإحساس بالضيق والانسداد وفقدان التوازن مع الذات، يغذي بوح الأديب شعرا، فالشاعر هنا يصف حالة الغراب وهي في حقيقة الأمر ما هي إلا انعكاسا على حالته النفسية شخصيا يصفها في الغراب.

ب- عند قيس بن الملوح

شاءت الأقدار وافترق قيس وليلى ولا أمل في رجوعها، فلم يستطع قيس تحمل هذا الفراق والألم فحمله أبوه إلى مني بغية عناء نسيانه أياها، وبينما هو في ذلك المكان سمع منادى ينادي باسم ليلى فأغمي عليه وعندما أفاق أنشد يقول:

وَداعٍ دَعا إِذ نَحنُ بِالخَيفِ مِن مِنىً فَهَيَّجَ أَحزانَ الفُؤادِ وَما يَدري

دَعا بِاسمِ لَيلى غَيرَها فَكَأَنَّما أَطارَ بِلَيلى طائِراً كانَ في صَدري

دَعا بِاسمِ لَيلى أَسخَنَ اللَهُ عَينَهُ وَلَيلى بِأَرضِ الشامِ في بَلَدٍ قَفرِ

عَرَضتُ عَلى قَلبي العَزاءَ فَقالَ لي مِنَ الآنَ فَاِجزَع لا تَمَلَّ مِنَ الصَبرِ

إِذا بانَ مَن تَهوى وَشَطَّ بِهِ النَوى فَفُرقَةُ مَن تَهوى أَحَرُّ مِنَ الجَمرِ[2]

الشاعر في هذه الأبيات تهيجت أحزان قلبه لدرجة أنه دعا عليه بقوله أسخن الله عينه، كما طلب العزاء والصبر لقلبه الذي لم يستطع أن يتحمل ذلك الفراق والألم، وذلك لأنه يقف مكتوف الأيدي ليس له حيلة أو ردة فعل، هذا الفراق الذي اعتبره قيس أحر من الجمر.

ليواصل حديثه عن الفراق في قصيدة مليئة بمرارة فراق المحبوبة فيقول فيها:

أيا ليلَ زَنْدُ الْبَيْن يقدَحُ في صَدْري ونار الأسَى ترمِي فُؤادي بالجمرِ

أَبَى حَدَثانُ الدهر إلاَّ تشتُّتاً وأيُّ هَوىً يَبْقَى على حَدَثِ الدهرِ

تعزُ فإن الدَّهرَ يجرحُ في الصفا ويقدحُ بالعَصرَينِ في الجَبلِ الوَعرِ

[1] قيس بن ذريح:ديوان، ص96.

[2] قيس بن الملوح:ديوان مجنون ليلى، رواية أبي بكر الوالبي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان،ط1، 1460ه، 1999، ص 33.

وإني إذَا ما أعوَزَ الدّمعُ أَهلهُ فَزعتُ إلى دَلحاءِ دائمةِ القطرِ[1]

من خلال هذه الأبيات الشاعر يتحدث عن ألم البعد والفراق حيث شبه الفراق بالحجر الذي يطعن القلب، فتنبعث نيران الحزن من القلب محدثا لهيبا حادا شبيه بلهيب النار، وعن المصائب والنوائب التي تحل به طوال حياته والتي تتبعه حتى وإن كان في الجبل العظيم.

فكلتا أقارب الحبيبين كان سببا افتراقهما وبعدهما عن بعضهما حيث نجده يقول في قصيدة:

لَقَد لامَني في حُبِّ لَيلى أَقارِبي أَبي وَبن عَمّي وَبن خالي وَخالِيا

يَقولونَ لَيلى أَهلُ بَيتِ عَداوَةٍ بِنَفسِيَ لَيلى مِن عَدوٍّ وَمالِيا

أَرى أَهلَ لَيلى لا يُريدُنَني لَها بِشَيءٍ وَلا أَهلي يُريدونَها لِيا

قَضى اللَهُ بِالمَعروفِ مِنها لِغَيرِنا وَبِالشَوقِ وَالإِبعادِ مِنها قَضى لِيا[2]

الشاعر في هذه الأبيات مغرم بليلى إلى حد الجنون إلا أن العداوة بين القبيلتين حالت بينه وبينها فكانت العائلتين سببا في ابتعادهما وفراقهما، ولكن رغم هذا البعد والفراق إلا أن الشاعر بقي متمسك بحبه ومخلص لهذه الحبيبة علما أنها لن تكون له في يوم من الأيام بل ستكون لغيره يستمتع بها ويكتفي هو بالبعد والشوق لها.

وفي موضع آخر يقول:

مُعَذِّبتي لولاكِ ما كنتُ هائماً أبيتُ سَخينَ العين حَرَّانَ باكيا[3]

فهنا نجد الشاعر يخاطب محبوبته بمعذبتي وكأن هذا العذاب قدره وهو راض بهذا القدر فالشاعر هنا يتلذذ بهذا العذاب ويتذوقه ويكمل حديثه بقوله:

معذِّبتي أوردتِني مَنْهَلَ الردَى وأخلفت ظني واحترمت وصاليا[4]

هنا قيس لا يمل بمخاطبة ليلى بمعذبتي التي أدب به إلى الهلاك وقد خاب ظنه بها عندما فارقته وقطعت وصاله.

جمالية البين:

كان لتبريحة البين والفراق أثرا بارزا في ديواني القيسيين، إذ كان بعد الشاعرين في فراق الحبيبة، حين ترحلا وتغيبا عنهما، ويبقى الشاعران في غربة ووحشة، فشعرا بألم وضيق وما حل بهما من فراغ روحي خيم على

[1] قيس بن الملوح: ديوان، ص 34.
[2] المرجع نفسه، ص38.
[3] المرجع نفسه، ص 42.
[4] المرجع نفسه ص43 .

قلبيهما من مرارة البين فقد كان لرحيل ليلى ولبنى وساعة وداعهما صدى ملء بادية الحجاز بأكملها وهذا بسبب عذاب البين حين ثارت وانفعلت نفسية الشاعرين وتألم من فقدان صويحباتهما وبعدهما، إذ صورا حجم المعاناة من قسوة الدهر وألم الفراق، فقد وظفا العديد من الألفاظ وعبارات البين والبعد، وكان لهذه العبارات رونقا جميلا خلابا على المستوى الديوان مما أضفي على القصائد رمزية خاصة بهية الطلعة، وهكذا في كل الأحيان فالصعوبات والعراقيل تولد شعراءنا قرائح شعرية متفجرة ومتميزة مليئة بالصورة والخلفيات الرائعة.

الحزن والأسى:

جاء في لسان العرب لبن منظور"هو نقيض الفرح وخلاف الشرور وجمعه أحزان وقد حزن، حزنا وتحازن وتحزن، ورجل حزنان شديد الحزن"[1]

إذن الحزن: هو عبارة عما يحصل لوقوع مكروه أو فوات محبوب في الماضي.

أما في الاصطلاح:

" فهو حالة انفعالية تتصف بمشاعر غير سارة وتعبر عن ذاتها تأوه وبكاء، فالحزن إذن حالة نفسية تفرضها وضعية الإنسان في الكون، هذه الوضعية المأساوية التي تشتمل على نقيضين، القدر المحتوم، والأمل العريض، حتمية الموت وغريزة الحب معا، وهذه التعارضات في كيان الإنسان"[2]

الحزن هو حالة نفسية مرتبطة بذات الإنسان ناتجة عن كلام أو سلوك غير سار.

2-تبريحة الحزن والأسى.

أ- عند قيس بن ذريح:

حزن قيس حزنا شديدا وجعل ينشج أحر نشيج، ولما طال عليه أشار قومه على أبيه بأن يزوجه امرأة جميلة.

فلعله يسلو بها عن لبنى وينسى ما مضى، وكانت هذه الإشارة من جديد بمثابة إحياء جرح قيس، وحزنه على ما مضى واسترجع ذكريات الماضي التي ألمته بها، فرافقه هذا الأسى طول الزمن و لم يعد يصبر ويتحمل ألم بعدها.

[1] أبو الفضل جمال الدين محدد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري:لسان العرب، ج13، ص112.

[2] كاميليا عبد الفتاح: إشكاليات الوجود الإنساني، دراسة نقدية تطبيقية في الشعر الواقعي والحداثة دار المطبوعات الجامعية الإسكندرية (د،ط)، 2008 ص 29.

فكانت لتبريحة الحزن والأسى من جراء معاناة قيس التي لا تنتهي. فأطلق تباريح حزنه بكل ما تحمله من عذاب وآلام قائلا متسائلا:

وكيفَ يَنامُ المرءُ مُستشعِرَ الجوَى ضَجيعُ الأَسَى فيه نكاسٌ رَوَادِعُ

ولا خَيرَ في الدُّنيا إذا لم تُواتِنَا لبينى ولم يَجمَعْ لنا الشّملُ جَامِعُ[1]

انقطع النوم من جفون قيس، فهو لم يعد يشعر بالنعاس كيف ينام، والأسى قد أصبح مرضا متكررا لا يفارقه حتى أصبح يشله على الحركة حقا معاناة، قيس مل وشؤم الحياة أدارة الدهر ظهره.

يعبر الشاعر عن وحدانيته وشعوره بالوحدة، وما يعانيه من حدة الحزن فجعل يقول:

وَما كُلُّ ما مَنَّتكَ نَفسُكَ خالِياً تُلاقى وَلا كُلُّ الهَوى أَنتَ تابِعُ

تَداعَت لَهُ الأَحزانُ مِن كُلِّ وَجهَةٍ فَحَنَّ كَما حَنَّ الظُؤارُ السَواجِعُ[2]

ألمت الأحزان وأقبلت على الشاعر من كل فج ومكان، فصورت بحزن عميق، كما تصورت الناقة بعطف وحنان على صغار أولادها، ثم يضيف معبرا عن حزنه الذي أتعب كاهله، بعد ما كانت مظاهر الحزن نتيجة حتمية من نتائج الحب، إذ نجد الشاعر متأثرا حزينا. ومن كل هذا يلجأ متألما قائلا:

أَحالَ عَليَّ الدَهرُ مِن كُلِّ جانبٍ وَدامَت وَلَم تُقلِع عَلَيَّ الفَجائِعُ

فَمَن كانَ مَحزوناً غَدا لِفُراقِنا فَمِلآنَ فَليَبكِ لِما هُوَ واقِعُ[3]

يشعر الشاعر بمرارة الحزن والألم، فيتهم الدهر بأنه من تسلط عليه المصائب والأحزان، فقد ألمت به الآلام والهموم من كل جانب، وأصبح لا مفر للجهاد.

يصور قيس نفسه مهموما محزونا، معذبا، فقد سيطر الحزن والألم على نفسيته، بل وحتى على جميع جسده، فهو يصور مشاعر الحزن والأسى في أبيات قصيدة، يتكبد حزنا شديدا مكتئب، حتى أصبح ملازمه في كل وقت وحين، فقد عاش مأساة رهيبة بأتم ما تحمله الكلمة من معنى فنجد هذا جليا في قصيدته إذ يقول:

لقد كنتِ حسبَ النفسِ لوْ دامَ وِدُّنا وَلَكِنَّمَا الدُّنْيَا مَتَاعَ غُرُورِ

جميعاً قَبلَ أنْ يَظهَرَ الهَوَى بِأنْعَمِ حَالَيْ غِبْطَةً وَسُرُورِ [4]

---

[1] قيس ابن ذريح: ديوان قيس لبنى.ص 54.

[2] المرجع نفسه، ص 58.

[3] المرجع نفسه، ص59.

[4] المرجع نفسه.ص98.

ها قد أتى موعد الحزن والألم، الليل إنه ليل طويل غير قصير يلهب أحشاء الشاعر من شدة الحرق ويتضح هذا جليا من خلال الأبيات السابقة حيث سيطر الحزن وأصبح المرافق الرسمي لقيس بن ذريح ثم يضيف **قائلا: فَوا**

كَبَدي مِن شِدَّةِ الشَوقِ وَالأَسى وَواكَبَدي إِنّي إِلى اللَهِ راجِعُ[1]

بعد أن سكن الحزن قلبه، لم يعد يطيق للفراق صبرا، ها هو يصارع الموت من شدة الألم فلعله يجد في الموت راحة.

لقد أصبح الحزن والأسى، تجربة فردية، انعكست في أشعار الشاعر حيث خيمت هذه التبريحة على سائر جوارحه، وأضحت لحظات ضيق تحفز في الذاكرة، فيستحضر الشاعر هذا العذاب معبرا في قوله:

صَدَعتِ القَلبَ ثُمَّ ذَرَرتِ فيهِ هَواكِ فَليمَ فَالتَأَمَ الفُطورُ

تَغَلغَلَ حَيثُ لَم يَبلُغ شَرابٌ وَلا حُزنٌ وَلَم يَبلُغ سُرورُ[2]

يصف قيس استحكام أمر الهوى، وشدة تسلطه على قلبه، بمعنى أن الهوى قد ملك مجامع قلبه وتوصل منه إلى حيث كسر سروره وحوله إلى حزن، وقد تغلغل وتوصل على معاناة وتعب وشدة.

جمالية الحزن والأسى:

برزت تبريحة الحزن والأسى بروزا جليا في ديواني القيسين وهذا منذ الوهلة الأولى وكان ذلك من جراء العذاب والمعاناة والحرمان، العاطفي، فقد عبر الشاعرين بلغة شفافة، وبأدوات تعبيرية جمالية، أعطت للقصيدة خلفية فنية راقية ورائعة، والمتأمل في هذه الأبيات يكتشف أنها صادرة من عمق ذات المحب والعاشق وهي تجربة حياتية عاشها الشاعرين بكل عمق وإحساس، وفي الوقت نفسه، هي المتنفس في لحظات التأزم واستحالة الحياة.

ب- عند قيس بن الملوح.

الحزن والأسى الذي سيطر على نفسية قيس بن الملوح مما جعله يدخل في متاهة العذابات فهو لم يتحمل ذلك الحزن الذي قض على نفسه وعقله وجعله كالمجنون يتجول في الطرقات، وبينما هو مار دار حديث بينه وبين قلبه فأنشد يقول:

فَيا قَلبُ مُت حُزناً وَلا تَكُ جازِعا فَإِنَّ جَزوعَ القَومِ لَيسَ بِخالِدِ[3]

[1] قيس بن ذريح: ديوان، ص55.

[2] المرجع نفسه، ص60.

[3] قيس بن الملوح: ديوان، ص 53.

فالشاعر في هذا البيت نجده يؤنب ويعاتب قلبه الذي اختار فتاة يهواها والتي لا يستطيع أن ينالها يوما ما مما جعل الحياة صعبة عليه، وأنه مهما حزن من ظروف الحياة ومشاكل الهموم لا يقنط من رحمة الله لأن الحياة زائلة وغير دائمة.

ليواصل حديثه قائلا:

هَويتَ فَتاةً كَالغَزالَةِ وَجهُها وَكَالشَمسِ يَسبي دَلُّها كُلَّ عابِدِ[1]

في هذا البيت الشاعر شبه وجه الفتاة بجمال وجه الغزالة وبالشمس المشرقة وهذا دليل على جمال ليلى وحسن بهائها.

قوله أيضا:

أَظَلُ بحزنٍ دائمٍ وتَحســـــــــــــرٍ وأشربُ كأسًا فيه سمٌ وعلقـــــمُ

فَحِتامٌ ياليلى قلبي مُعـــــذبٌ بروحٍ تقضِي ماتحبُ وتَحكـــــــــمُ[2]

الشاعر في هذه الأبيات سيطر عليه الحزن مما جعله يشرب كأس المرار، هذا الحزن الذي عذب روحه الطاهرة النقية التي عشقت ليلى بصدق وإخلاص وأن هذا العذاب الذي سيطر عليه جعله لا يستطيع التحكم في نفسه مما جعله ضائع وهائم.

كذلك نجده قائلا:

أرى سقمًا في الجسمِ أصبح ثاوياً وحزناً طويلاً رائحاً ثم غاديا

ونادى مُنادي الحُبِ أين أسيرها ؟ لَعلَّكَ مَا تَزْدَادُ إلاَّ تَمَادِيَا

حَمَلتُ فؤادِي إن تعلّقَ حُبُّها جَعلتُ له من زَفرةِ الموتِ فَادِيا[3]

في هذا البيت نلاحظ أن الحزن سيطر على نفسية الشاعر فهو لا يغادره مطلقا، هذا الحزن الذي سبب له مرضا وذلك بسبب عدم وصوله إلى حبيبته ليلى.

ليكمل قيس حديثه عن الأسى في قصيدة أخرى فيقول في نهايتها:

وَأَنِّيَ مَمنوعٌ مِنَ النَومِ مُدنَفٌ وَعَينايَ مِن وَجدِ الأَسى تَكِفانِ[4]

---

[1] قيس بن الملوح : ديوان، ص 53.

[2] المرجع نفسه، ص 73.

[3] المرجع نفسه، ص57.

[4] المرجع نفسه، ص 111

الشاعر هنا يوصف حالته المزرية التي يعاني منها والتي حزمته من النوم طوال الليل فالظاهر أنه مجروح عليل القلب.

ج- البكاء

لغة:

جاء في معجم لسان العرب البُكاْء من الفعل بَكَا والبُكَاءُ يقصر ويمد، قال الفراء وغيره إذا مددت أردت الصوت الذي يكون مع البكاء، وإذا قصرت أردت الدموع خروجها.

بَاكَيتُ فلان فَبَكَيتهُ إذ كنت أكثر بكاء منه، وتَبَاكَى: تكلّف.

البُكاءُ والَبكيُ: الكثير البكُاء، ورجل باكٍ والجمع بُكاةْ

وَأَبكَى الرجل، ضع به ما يُبْكِيهِ، وبُكاءٌ على الفقيد، هيجه للبُكاءِ عليه ودعاه إليه[1].

من خلال ما سبق نفهم أن كلمة البكاء تعني خروج دموع مع صوت.

في معناه العام:

البكاء هو سيلان الدموع وعادة ما يحدث هذا استجابة لحالة عاطفية أو ألم ما، فالإنسان إذا أحب شخص ما أو اشتاق إليه يعبر عن هذا الحب أو هذا الاشتياق بالدموع، وذلك لأنها السبب الوحيد الذي يخفف عن نفسية الشخص، وكذلك تقذف الدموع لشعور جميل أو حدث مفرح سمعه وطار عقلك فيه كالنجاح في إحدى الشهادات أو غيرها...

وهذا ما حدث مع مجنون ليلى ومجنون لبنى فهما عبرا عن حزنهما بالبكاء.

3- تبريحة البكاء.

أ- عند قيس بن ذريح:

بعد أن رحلت لبنى بعد طلاقها، وحل الليل على قيس، انفرد، وأوى إلى مضجعه، ولكن لم يأخذه القرار وجعل يتمتم، ثم وثب حتى أتى موضع خبائها، فجعل يتمرغ، ويبكي أخر البكاء، بل ومنذ تلك الفترة لم يفارق الدمع حتى آتته المنية وهو باكيا شاكيا متحسرا يقول:

بَكَيتُ نَعَم بَكَيتُ وَكُلُّ إلفٍ إذا بانَت قَرينَتُهُ بَكاهَا

وَما فارَقتُ لُبنى عَن تَقالٍ وَلَكِن شِقوَةٌ بَلَغَت مَداهَا

وأنت بِذِكرِ لُبْنَى مُسْتَهامٌ مُعَنًّى حَيْثُ ما شَحَطَتْ نَواهاَ[1]

[1] أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب دار صادر للطباعة والنشر،ط4، بيروت، لبنان،ص 135،136.

يصف لنا قيس شدة بكاءه، بسبب بين لبنى، ثم يخبرنا بأنه لم يفارقها عن كره يكنه لها أو بعض وإنما الظروف أرغمته ولكن ورغم كل هذا إلا أنه لا يزال يعشقها بل ويحبها مستهام بها.

ويخاطب في قصيدة أخرى حبيبته لبنى:

بتُ والهمُّ يا لُبينَى ضَجيعِي وجَرت مُذ نَأيت عنِي دُمُوعِي

وَتَنَفّسْتُ إذْ ذَكَرْتُكِ حَتّى زالت اليومَ عن فؤادي ضُلُوعي[2]

يكرر قيس وصف حاله وما آلت إليه نفسيته المنهارة، وقي أصبح هم لبنى ملازمه ومرافقه في كل وقت وحين، والدموع لو تفارق عيناه من ذكراها، فهو يشعر وكأن فؤاده سلب منه.

ثم يقول في موضوع آخر:

سَأَبكي عَلى نَفسي بِعَينٍ غَزيرَةٍ بُكاءَ حَزينٍ في الوِثاقِ أَسيرِ

وَكُنّا جَميعاً قَبلَ أَن يَظهَرَ الهَوى بِأَنعَمِ حالٍ غَبطَةٍ وَسُرورِ[3]

لا يزال قيس يبكي نفسه، فقد أصبح سلاحه ردا على الأيام هو البكاء، حتى أصبح أسيره، بعدما كان في الأمس القريب في نعيم وسرور ويزداد وهج الحب في قلب قيس فيبكي ويهتف:

بكتْ عينيَ اليُمْنَى فلمّا زجرتُها عن الجهل بعد الحلْم أسبَلتَا معَا

وأذكُرُ أيَّامَ الحمَى ثمَّ أنْثَني على كبِدِي من خشيةٍ أنْ تصدَّعا[4]

يبكي الشاعر عن الأيام الذاهبة والذكريات الماضية التي أنقضت، وغدت خبرا من الأخبار، وتذكرها يبعث في نفسه شعورا شديدا إليها ويتألم من فقدانها.

ويستمر قيس في حديثه وبكاءه للأيام قائلا:

فَقَدْ كُنْتُ أَبكِي والنَّوَى مُطمئِنَّةٌ بِنَا وبِكُمْ مِنْ عِلْمِ مَا البَيْنُ صانِعُ

نَهَارِي نَهارُ النَّاسِ حتى إذا بدا لِيَ اللَّيلُ هَزَّتني إليكِ المضاجعُ

ويعود قيس يشكو مرارة بين لبنى، وقد إختلجته مشاعره تحت ووطأة هذا الفراق، فهو يبكي ليلا ونهارا وهو يصور لنا ما أصابه من آلام دفينة.

---

[1] قيس بن ذريح: ديوان، ص90.

[2] المرجع نفسه، ص63.

[3] المرجع نفسه، ص98.

[4] المرجع نفسه، ص100.

ب- عند قيس بن الملوح

يبكي الشاعر وتسيل دمعة من عينه استجابة لعاطفة أوألم فبينما كان قيس يتجول في الصحاري إذ طلع عليه رجل تقدم منه أبلغه سلام ليلى وأعطاه كتابها قرأه قيس وجعل يبكي ويقول:

فوالله ما أَبكِي على يومٍ مَيتَتِي ولكني من وَشَكِ بَينكِ أَجْزَعُ

فَصَبرًا لأمرِ الله إن حَانَ يوَمنَا فَليسَ لأَمرِ حَمّهُ الله مَدفعُ[1]

الشاعر هنا يخاطب ليلى بأنه لن يبكي على الأيام التي مضيت وهو بعيد عنها ولكنه سوف يبكي على فراقها وبعدها عنه، وإن قدر الله وافترقو فما عليهم إلا الصبر على هذا الفراق لأن قضاء الله لن يرد

ونجد الشاعر معبرا عن البكاء الشديد في قصيد ةأخرى فيقول فيها:

سَأبكِي على ما فَات مِني صَبَابةً وأَندُبُ أيامَ السُّرُورِ الذّواهِبِ

وأمنعُ عَينِي أن تلذّ بغيركُم وإنِّي وإنْ جَانَبْتِ غَيْرُ مُجانبِ [2]

وفي هذه الأبيات الشاعر يتحدث عن نفسه وعن طريقة بكاءه بحرقة على محبوبته ليلى، فهو يبكي على تلك اللحظات الجميلة التي أمضاها معها ويتمنى أن تعود ، كذلك يتحدث عن حبه الكبير وإخلاصه لها وأنه لن ينظر إلى غيرها وستبقى هي الأجمل في نظره.

وفي موضع آخر يقول:

إذَا جاءَني مِنْهَا الكِتَابُ بِعَيْنِهِ خلوت ببيتي حيث كنت من الأرضِ

فَأبْكِي لِنَفْسِي رَحْمَةً مِنْ جَفَائِهَا ويبكي من الهجران بعضي على بعضِي

وإني لأهواها مسيئاً ومحسناً وأقْضِي على نَفْسِي لها بِالَّذِي تَقْضِي[3]

الشاعر في هذه الأبيات يبكي ويتألم جراء حبه لليلى هذا الحب الذي أهجره من بلاده وجعله محطم مكسور الخاطر، ولكن رغم هذا فإنه بقي مصر على أنه سيبقى يحبها حتى وإن عاد عليه هذا الحب بالسلب أو الإيجابية.

[1] قيس بن الملوح: ديوان ص 71.

[2] المرجع نفسه ص 76.

[3] المرجع نفسه ص111.

جمالية البكاء:

ومنه فقد كان للبكاء نصيبا كبيرا في الديوانين، حيث أظهر أن إطفائه بالدموع تزيل ملوحتها بالنفس من جراثيم العذاب، وتعفن الألم وهذا جسده المجنونين إذ اخلقا توازنا، أو انسجاما زاد من جمالية الأبيات حيث أضاف للشعر إيقاعا جذابا، خلفته الحالة النفسية للقيسيين، وقد أدى هذا البكاء وظيفته الإنسجامية الاتساقية التي ربطت بين كل أجزاء التباريح، ورغم كل هذا فهما متمسكان بهذا البكاء حبا وتعبيرا على الحالة المأساوية التي يعيشانها

الهجر:

لغة: جاء في لسان العرب لبن منضور الفعل الثلاثي "هَجَرَ والَهجْرُ ضد الوصل هَجَرَهُ يَهْجُرُهُ وهُجْرَانًا هَجرْتُ هَجْرًا إن تركته وأغفلته هَجَرَ الرجل هَجرًا إن تباعد ونأى والهُجرَانُ ترك ما يلزمك تعاهده"[1].

أما في المعنى العام: هي عبارة عن تجارب صادرة من عمق الذات، حيث عاشها الشاعر في حياته بكل عمق وإحساس، ويسمى هذا الهجران بالاغتراب العاطفي المتمثل في عبارات رومانسية رقيقة حزينة ومن هنا تنبعث الآلام والمتاعب والصور المأسأوية، تكون كذلك الهجرة هجرة القبيلة لأرض الأجداد.

4- تبريحة الهجر

أ- عند قيس بن ذريح:

غادرت لبنى الديار، فخيم الهجران على روح قيس، وأصبحت الوحدة هي رفيقة دربه، حيث حاول بناء وبنات قبيلته مرارا وتكرارا أن ينسوه في لبنى ولكن لا جدوى من ذلك، فالفراغ الروحي، والهجران القلبي خيم على كيان قيس بن ذريح فأنشد يقول:

أَرى بَيتَ لُبنى أَصبَحَ اليَومَ يُهجَرُ وَهُجرانُ لُبنى يا لَكَ الخَيرُ مُنكَرُ
أَتَبكي عَلى لُبنى وَأَنتَ تَرَكتَها وَأَنتَ عَلَيها بِالمَلا أَنتَ أَقدَرُ[2]

يصف لنا الشاعر حالته، وجاءت دلالتا عن الصدمة والمرارة والألم، وعدم الرضا لأمر الواقع من هجر لبنى له، ثم يتساءل مؤنبا نفسه على ما حصل في ملل وتدمر.

يصور لنا الشاعر مصائب الدهر، وتراكمها من الهجران فيقول

خَليلَيَّ مالي قَد بَليتُ وَلا أَرى لُبَينى عَلى الهِجرانِ إِلّا كَما هِيا[1]

1 أبو الفضل جمال الدين بن مكرم ابن منظور الافريقي المصري: لسان العرب،ج15، ص23.
[2] قيس بن ذريح: ديوان، ص44.

يخاطب الشاعر صديقاه وهو غير مصدقا لما حصل له ولا يزال تحت تأثير الصدمة.

ويواصل قيس بن ذريح في تباريح آلامه الدفينة بدافع الهجران والحرمان قائلا:

أنك لا تجزينني بصحابةٍ ولا أنا للهجران منك مُــطِيقُ

وأنَّكِ قَسَمْتِ الفؤادَ فَــنصْفُه رهينٌ ونصفٌ في الحبال وثيقُ[2]

وهنا يخاطب لبنى في حوار مع نفسه، معبرا عن مشقة الأسى التي خلفته من ورائها، دائما نجده حرصا على بيتان ووصف معاناته بسبب الهجران.

ب- عند قيس بن الملوح.

هجرت ليلى و لم يستطع تحمل الهجر وهجر هو كذلك من بعدها إلى الصحراء هناك فقد صوابه وأصبح مجنون يتجول في الرمال وبينما هو مار إذ يسمع رجل يذكر اسم ليلى فعاد إلى صوابه:

أيَا هَجَرْ ليْلى قَدْ بَلغْتَ بِيَ المَدَى وَزِدْتَ عَلَى ما لَمْ يَكُنْ بَلَغَ الهَجْرُ

عَجِبْتُ لِسعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَها فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْننا سَكَنَ الدَّهْرُ

فَيَا حُبَّها زِدْنِي جَوىً كُلَّ لَيْلَةٍ ويا سلوة الأيام موعدك الحشر[3]

وكذلك نجده يقول:

هَجَرْتُكِ أَيَّاماً بِذِي الغَمْرِ إِنَّنِي عَلَى هَجْرِ أَيَّامٍ بِذِي الهَجْرِ نَادِمُ

وَإِنِّي وَذَاكَ الهَجْرَ لَوْ تَعْلَمِينَهُ كعازبةٍ عنْ طفلها وهي رائمُ[4]

لم يطق الشاعر ذلك الهجر الذي كان سببا كافيا في ابتعاده عن ليلى، فالهجر لم يكن بالنسبة له سببا كافيا في نسيان ذلك الحب الذي يكنه لليلى، فأرغم فراقهما إلا أنه مازال متعلق بحبها في المقابل بقي يتعذب بويلات ذلك الهجر، فهو يؤنب نفسه على ذلك الفراق ويمني نفسه أن تعود أيامه الجميلة مع ليلى رغم أنه يعلم في قرارات نفسه أن ذلك لن يكون مما أدخله في زوبعة الندم والحسرة.

ليواصل حديثه عن الهجر في قصيدة أخرى فيقول فيها:

تعود مريضاً أسقمته بهجرها ولو عادته عاد لا يعرف السقما

لقد أضرمت في القلب ناراً من الجوى فما تَرَكَتْ عَظْماً ولا تَركتْ لَحْمَا

---

[1] قيس بن ذريح: ديوان، ص 38.

[2] المرجع نفسه، ص 112.

[3] قيس بن الملوح: ديوان ص 85.

[4] المرجع نفسه، ص 74.

وإنّي عَلَى هِجْرَانِهَا وَصُدودِهَا وما حلّ بي مِنْهَا أرَى حُبِّها حَتْمَا[1]

انطلاقا من هذه الأبيات الشاعر مولوع بحب ليلى فهي سكنت قلبه وعقله وهجرها هذا، سبب له المرض والإرهاق والتعب، هذا المرض الذي لم يزول ما دام ليلى بعيدة عنه، ولكن رغم ما سببت له من آلام وجروح إلا أنه راض بهذا العذاب وأنه سيستمر فيه حتى آخر نفسه.

جمالية الهجر

تجلت تبريحة الهجر والهجران عند المجنونين إذ لمسنا في هذه التبريحة، جمالية خاصة جسدها التتابع والتكرار المستمر لكلمة الهجر، وما يلفت وبشدة انتباه القارئ ويثير دافع التشويق لديه في معرفة ما سيحصل، وما زاد من جمالية تكرارها في الديوانين هو توظيفها أحيانا بصغتي الاستفهام والتوكيد، وتركيز القيسيين على إعادة كلمة هجرني وللهجران دلالة منهما على إحساسهما بالألم والوجع والمرارة لدرجة كبيرة، وشعورهما بالخيبة من هذا البعد وتوظيفهما هنا أضاف لمسة الحزن على الأبيات تؤثر على نفسية القارئ وتكسب شعورا خاصا بالتعاطف.

الشوق:

لغة: جاء في معجم العربي لأحمد مختار وآخرون مصطلح "شَاقَ يَشُوقُ، شَوقاً، شَائِقٌ، رأيته هيجته وحركت نفسه وشَوَّقَ يُشَوِقُ تَشْوِيقًا رغبه فيه وحببه فيه، واشتاق يشتاق اشتياقا رغبت نفسه فيه وأشواق نزوع النفس إلى الشيء "[2] وعليه فالشوق هو نزاع القلب إلى لقاء المحبوب.

ب- اصطلاحا "الشوق هو عاطفة سامية أودعها الله منذ الأزل وهي إحساس لولاها لانقطع الإنسان عن أهله ونكس على نفسه، ولولاها لما وجدنا مهاجرا صابرا أو معتزلا فالشوق إذن دواء ناجح فأينما وجدت غريبا قابلك شوقه" [3]

ونقول أن الشوق ناتج عن عاطفة تجدب باطن المحب إلى المحبوب حال الوصال لنيل زيادة اللذة ودوامها.

5- تبريحة الشوق:

اشتاق قيس للبنى، بل اشتعلت نار شوقه وازداد لهيب لوعته بها، حتى الجنون، فنظم خطة محكمة واستدعى قومه، وأعتل على أبيه بالخروج إلى الصيد. سمح له أبوه بالخروج فأتى بلاد لبنى. خرج قيس وفتيان قومه إلى الصيد، وجعل يتوقع أن يرى لبنى أو أن يرسل إليها، وقد منعه قومه من الإلهام بها، وقد تعذر لقاءه بها ولا حتى رؤيتها. فانصرف يقول:

[1] قيس بن الملوح: ديوان ص100.

[2] أحمد مختار وآخرون : المعجم العربي الأساسي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لغوس ص 830.

[3] عمر بوقرورة: الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث 1945-1962(د ط)منشور جامعة باتنة،ص15.

وَددتُ مِنَ الشَّوقِ الذي بي أنَّني أُعَارُ جناحَيْ طائرٍ فأطيرُ[1]
فما في نَعِيمٍ بَعْدَ فَقْدِكَ لَذَّةٌ ولا في سُرُورٍ لَسْتِ فيهِ سُرُورُ

وهنا يتصاعد شوق الشاعر وحنينه للبنى، ومن كثرة شوقه لها ولوعته بها، هو يود أن يعار جناحي طائر فيطرد إليها، فترات يبث خلجاته وكيف أنه لم يذق طعم السعادة ويشعر به بعد فقدانها ثانية فهو يرفض الواقع الذي لا يجمعه بها.

مرض قيس مرضا شديدا، أشفى منه على الموت، ولم يأته عائدا ولا زائر. فمضى في حزنه وألمه معبرا عن شدة عذابه وما آلت إليه حالته من سقام فقال:

أَلُبنى لَقَد جَلَّت عَليكِ مُصيبتَي غَدَاةَ غدً إذا حَلَّ ما أتَوَقَّعُ
تُمَنِّينَني نَيلاً وَتَلوِينني بِه فَنَفْسِيَ شَوْقاً كُلَّ يَوْمٍ تَقَطَّعُ
وَقَلْبُكِ قَطُّ مَا يَلِينُ لِمَا يَرَى فَوَا كَبِدِي قَدْ طَالَ هذا التَّضَرُّعُ[2]

وهنا نلاحظ أن قيس يخاطب لبنى وينسب إليها مصيبته التي حلت به، وذلك بسبب تماطلها في عطاءه إن الشوق يكابد قلبه، حتى لم يعد يتحمل أشجانه ولواعجه. تزوجت لبنى بغيره ورحلت عن وطنها وأنتقل إلى المدينة لزوجها، ولما سمع قيس بالخبر أيقن باستحالة لقاءها مرة أخرى فحزن وتشوق إلى غيابها كليا فهاج فؤاده من الألم فقال في مطلع قصيدة:

بانَت لُبَيْنَى فَهاجَ القَلبُ مَن بانا وَكانَ ما وَعَدَت مَطلاً وَلَيّانا
وَأَخلَفَتكَ مُنىً قَد كُنتَ تَأمُلُها فَأَصبَحَ القَلبُ بَعدَ البَينِ حَيرانا
اللَهُ يَدري وَما يَدري بِهِ أَحَدٌ ماذا أَجَمجَمُ مِن ذِكراكِ أَحيانا[3]

والشاعر هنا على وشك فقد الأمل من سماع الخبر المؤلم لزواج لبنى، ولكن هو مقاوم، صامد رغم الفراق والبعد على أمل أن يجعل الله بينهما لقاء آخر، نعم إن هيجان القلب معذب فيخاطب إياها بأن قلبه قد أصبح في حيرة من أمره بعد هذا الفراق.

يتصاعد لهيب شوق، والشاعر يواصل مشاعر الاشتياق في شعر قيس فهو يقول:

قَد زارَني طَيفَكُم لَيلاً فَأَرَّقَني فَبُتُّ لِلشَوقِ أُذري الدَمعَ تَهتانا
إِن تَصرِمِ الحَبلَ أَو تُمسي مُفارِقَةً فَالدَهرُ يُحدِثُ لِلإِنسانِ أَلوانا[4]

[1] قيس بن ذريح: ديوان، ص 46.
[2] المرجع نفسه، ص60.
[3] المرجع نفسه، ص78.
[4] المرجع نفسه، ص79.

فالشاعر هنا يصف حالته النفسية بعد الغياب، وكيف أنه يبيت الليل في حزن ودموع منهمرة على خده لدرجة أن طيفها لا يفارق خياله ولا مخيلته، فهي زائرته في كل وقت وحين.

طغى الشوق على جوانح قيس حتى مرض، ولما عرف الطبيب سبب مرضه هو الحب، سأله منذ كم هذه العلة، ومتى وجدت لهذه المرأة فقال له إن روحي تعلق بروحها قبل خلقنا وشوقي لها ما له حدود فأنشد شعرا بقوله فيه:

وَإِنِّيَ أَشتاقُ إِلى ريحِ جَيبِها كَما اِشتاقَ إِدريسُ إِلى جَنَّةِ الخُلدِ
وَلَو لَبِسَت ثَوباً مِنَ الوَردِ خالِصاً لَخَدَّشَ مِنها جِلدَها وَرَقُ الوَردِ
يُثَقِّلُها لُبسُ الحَريرِ لِلينِها وَتَشكو إِلى جاراتِها ثِقَلَ العِقدِ
وَأَرحَمُ خَدَّيها إِذا ما لَحَظتُها حِذاراً لِلَحظي أَن يُؤَثِّرَ في الخَدِّ[1]

يعيش الشاعر أسوء أيام حياته فهو ذاق من الشوق ذرعا، ثم إن التمزق والعذاب نهش أحشاءه، من خلال هذه نلاحظ شدة ولعته وألمه، وفرط شوقه للبنى إذ شبه شوقه لها باشتياق النبي إدريس إلى الجنة.

علمت لبنى بأن قيس عليل، فقالت لقومها ما أراه إلا كاذبا فيما يدعي، ومتعللا، فبلغه ذلك فرد عليها قائلا:

وَلَوْ تَعْلَمِينَ الغَيْبَ أَيْقَنْتِ أَنّني لَكُم والهدايا المُشعَرات صديقُ
تتوقُ إِلَيكِ النفسُ ثمَّ أَرُدُّها حَياءً ومِثلي بالحَياءِ حَقيقُ[2]

في هذه الأبيات رد قيس على لبنى حيث يصور نفسه مهموما مشتاقا لا يلوي على شيء، معبرا لها أنه لو علمت الغيب فتعلم يقينا بأن مرضه صادقا، وإن كانت تدري ما به من الشحن وأشواق تخالج صدره، فإنه يردد نفسه ويتراجع استحياء نعم إنه إحساس صادق ناجم عن فؤاد ملوع مشتاق.

ثم يواصل في آخر القصيدة قوله في أبيات:

يَهيجُ بِلُبنى الداءُ مِنّي وَلَمْ تَزَلْ حُشَاشَةُ نَفْسِي لِلْخُرُوجِ تَتُوقُ
بِلُبنَى أُنادِي عند أوّلِ غشيةٍ ولو كنتُ بين العَائداتِ أفيقُ [3]

يتذكر قيس لبنى، والأيام التي مضت معها، فتزداد شدة مرضه وخاصة كلما أطنب يتذكرها، فيعود له الإحساس بالألم والحزن.

---

[1] قيس بن ذريح: ديوان ، 94.

[2] المرجع نفسه ، ص135.

[3] المرجع نفسه، ص111.

عارضه قومه لما علموا أن سبب خروجه معهم ليس بحجة الصيد وإنما بغية أيرى لبنى، فهموا وطردوه من عندهم، فمن ذلك قوله مخاطبا أصدقائه الذين رافقوه على الصيد، أن يعرج بعناية لمشاهدة الحبيبة والوقوف عليها فبكى شوقا عليها مخاطبا:

بأَجْهَدِ منّي حَرَّ شـــوقٍ ولــوعةٍ عَليكِ ولكن الــعــَدو عَــدانــي

خَلِيلِي إنِــي مــيتٌ أو مُــكــلَّــمٌ لبيني بسري فامضــيا وذَرَانــي[1]

فشوق قيس تصاعد مستمر فقد وضع أصدقائه بين أمرين أحلاهما مر، حيث اشترط لهم، أن يكلم لبنى أللحظة بسر.

جمالية الشوق والحنين:

قضى الشوق والحنين درحا من الزمن في قلب قيس، حتى أضحت سمة تلخص مدى التذمر والضيق الروحي الذي يعاني منه قيس بن ذريح بسبب طلاقه من لبنى.

ومنه فقد كان لمثل التبريحة ظهور مميزا في ديوان قيس بن ذريح وهذا ما أضفى على الأبيات الشعرية والقصائد، ونقا وجمالا، وأشعر المتلقي بشيء غير قليل من شوق أسيان.

ب- عند قيس بن الملوح:

الشاعر قيس تحت وطئه الشوق وتأثيره جراء تلك المعاناة التي ألمت به نتيجة بعده عن ليلى، فالشوق هنا تبريحة سيطرت على نفسية الشاعر مما جعله يدخل فيما يشابه العذابات فهي لا تفارق خياله مطلقا في كل مكان ومهما حاول نسيانها لن يستطيع بل كل يوم تزداد نفسه حنينا وشوقا لها فنجده يقول في قصيدة:

بَينَما نحنُ بالبلاكثَ بالقَا ... عِ سرَاعاً ، وَالعِيسُ تَهْوِي هُوِيّا

خَطَرت خطرةً على القلبِ من ذكراكِ وهناً، فما استطعتُ مضيّا

قلت: لبّيك، إذ دعاني لك الشّو ... قُ وللحاديينَ كرُّ المطيّا[2]

وفي موضوع آخر يقول :

أَنفُسُ العاشِقينَ لِلشَوقِ مَرضى وَبَلاءُ المُحِبِّ لا يَتَقَضّى

عَبَراتُ المُحِبِّ كَيفَ تَراها بَعضُها يَستَحِثُّ في الخَدِّ بَعضا[3]

[1] قيس بن ذريح: ديوان، ص 115.

[2] قيس بن الملوح: ديوان، ص 92.

[3] المرجع نفسه، ص 90.

من خلال هذه الأبيات، الشاعر يحاول أن يوضح لنا مدى تأثير الشوق على نفسية العشاق حتى أصبح هذا الشوق مرض وبلاء على العاشق، هذا الشوق الذي هو في حقيقة الأمر مرآة عاكسة بمعنى أنه لا يستطيع أن يخفيه في جواته.

كما نجد حنينه إلى حبيبته ليلى فيقول في مطلع قصيدته:

أَحِنُّ إِلى لَيلى وَإِن شَطَّتِ النَوى بِلَيلى كَما حَنَّ اليَراعُ المُثَقَّبُ

يَقولونَ لَيلى عَذَّبَتكَ بِحُبِّها أَلا حَبَّذا ذاكَ الحَبيبُ المُعَذِّبُ[1]

الشاعر هنا أحن إلى حبيبته ليلى رغم العذاب الذي سببته له فهو هنا راض بهذا العذاب وهذا راجع إلى شدة وجده وإخلاصه لها ونجده كذلك غير مهتم لما سيقولونه الناس عنهم.

ليواصل حديثه في قصيدة أخرى عن الشوق فيقول فيها:

قُم فَاِصطَلِ النارَ مِن قَلبي مُضَرَمَةً فَالشَوقُ يُضرِمُها يا مَوقِدَ النارِ

وَيا أَخا الذَودِ قَد طالَ الظَماءُ بِها لَم تَدرِ ما الرِيُّ مِن جَدبٍ وَإِقتارِ[2]

رُدَّ المَطِيَّ عَلى عَيني وَمَحجِرَها تَروِ المَطِيَّ بِدَمعٍ مُسبَلٍ جارِ

يا مُزمِعَ البَينِ إِن جَدَّ الرَحيلُ فَلا كانَ الرَحيلُ فَإِنّي غَيرُ صَبّارِ[3]

اتخذ الشاعر في هذا الموضع وضعية الشاعر الذي اشتاق إلى حبيبته قبل أن يخرج في رحلته، ودرجة الشوق هذه سببت له حالة غير مستقرة جعلت نفسيته تميل إلى التعبير عن عدم تحمل ذلك الوضع الذي عايشه الشاعر جراء الألم الذي كان يستولي عليه هذا الشوق الذي يسيطر عليه كليا وما أريده تصبير نفسه على هذه المحنة التي عايشها ولن تدوم.

ه- الشكوى:

جاء في معجم لسان العرب لبن منضور كلمة" شَكَى.شَكَى الرجل أمره يَشْكُو على فلان وتَشَاكِي القوم شَكَى بعضهم إلى بعض شَكَى الموجع، وشَكَوتُ فلانا أَشْكُوهُ شَكْوَى وشَكَاوَةً وشَكَى وشَكَيْتُ إذ أخبرت عنه بسوء فعله بك والشَكِيُّ الذي يَشْتَكِي"[4]

[1] قيس بن الملوح: ديوان، ص 110.

[2] المرجع نفسه، ص60.

[3] المرجع نفسه، ص 61.

[4] أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منصور الإفريقي المصري: لسان العرب مج 15 ص122.

.بمعنى إن الشكوى تشمل هجران الحبيبة لحبيبها، والشكوى كذلك من عناء الغربة وبعد الحبيبة وحرمانه من لقائها، وتمنيه العودة واللقاء بها مجددا ويشكو الإنسان أو الشاعر عندما يمسه جرح عميق بسبب الحرمان والمعاناة.

6- تبريحة الشكوى عند بن ذريح:

رحلت لبنى مع قومها اتبعها قيس مليا، ثم علم أن أباها سيمنعه من المسير معها، فوقف ينظر إليهم وهو يبكي متحسرا، حتى غابوا عن عينه، فرجع منهارا وقد كانت شكوى قيس ذريح قد قاربت عنان السماء انه شعور لا يطاق من شدة المعاناة، وعلى الرغم من الموقف الذي تعرض له إلا أنه لم يقف مسالما وذهب يطلق سراح تباريحه معبرا عن قسوة الزمن شاكيا مما ألحق به من ضرر وعذاب، بسبب الفاجعة التي ألمت به.

فقد كانت شكوى قيس بن ذريح تندفع من صميم فؤاده فلتهب وجدانه المتمزق، ويشكو قلبه من جراء الموقف الحاد الذي كسر كيانه، وبهذا فقد راح ينشد فيقول:

ومن أشتكي منهُ الجفاءَ وحُبُّهُ طَرَائِفُ كَانَتْ زَوَّ مَنْ يَتَحَبَّبُ

عفا اللهُ عن أمِّ الوليدِ أما ترى مَسَاقِطَ حُبِّي كَيْفَ بي تَتَلَعَّبُ

فَتَأْوِي لِمَنْ كَادَتْ تَغِيظُ حَيَاتُهُ غداةَ سمتْ نحوي سوائرُ تنعبُ[1]

رغم الحب الذي كان يكنه قيس للبنى إلا أنه ظل يعاتبها في أكثر من قصيدة، حيث يشتكي الجفاء فيسأل نفسه ويتساءل في حيرة عمن كانت تئنسه وتشاركه حديثه وكلامه يحلوه ومره حتى ولو كان هالكا نعم إنه محطم مكسور القلب والخاطر.

ويقول قيس بن ذريح في موضوع الدموع والشكوى:

ألاَ لَيْتَ لُبْنَى في خَلاءٍ تَزُورُنِي فأشكُو إليها لوعتِي ثُمَّ تَرْجعُ

صَحَا كُلُّ ذي لُبٍّ وَكُلُّ مُتَيَّمٍ و قلبِي بِلُبْنَى ما حَيِيتُ مُرَوَّعُ

فَيَا مَنْ لِقَلْبٍ ما يُفِيقُ مِنَ الهَوَى وَيَا مَنْ لِعَيْنٍ بِالصَّبَابةِ تَدمعُ[2]

من الواضح أن الحزن لا يفارق محيا قيس بن ذريح، إلا أنه يتمنى لقاء لبنى وزيارتها ولو في خلوة، وستر بعيدا عن الناس، لكي يبث عذابه وتعلقه بها، يخبرها بأن عيناه لا تجف من الدموع من ذكراها وكيف أنه لا يقوى على فراقها ولا العيش من دونها.

ويمضي الشاعر في حزنه وألمه، يشكو لوعته قائلا:

[1] قيس ابن ذريح: ديوان، ص28.

[2] المرجع نفسه، ص 49.

إلى اللهِ أَشكُو نِيَّةً شَقَّتِ العصا هيَ اليَوْمَ شَتَّى وَهْيَ أمْسِ جَمِيعُ
وَمَا كَادَ قَلْبِي بَعدَ أيّامَ جاوَزَتْ إليَّ بأجراع الثُّدِيِّ يريعُ
فإنَّ انهمالَ العينِ بالدَّمع كُلما ذكرتُكِ وحدي خالياً لَسريعُ[1]

نلمس في هذه الأبيات أن الشاعر قد ذاق درعا من المعاناة والحرمان والقهر، ولهذا نراه قد لجأ إلى رب العباد عز وجل يشكي أمره إليه، إذ لا ملجأ بعده، إذ أنه وللبين تفرقا ولبين اليوم بعيدة عنه وبالأمس كانت مؤنسته، واليوم وحيد.

سمع قيس بزواج لبنى بعده، جزع جزعا شديدا، وجعل يجهش ويبكي أحر البكاء، فأخذ في موضعها ويتمرغ على تراب قدمها، فأخذ يقول في مطلع قصيدة:

إلى اللَهِ أَشكو فَقدَ لُبنى كَما شَكا إلى اللَهِ فَقدَ الوالِدَينِ يَتيمُ
يَتيمٌ جَفاهُ الأَقرَبونَ فَجِسمُهُ نَحيلٌ وَعَهدُ الوالِدَينِ قَديمُ[2]

شكا الشاعر فراقه ومعاناته، لأن قلبه لم يعد يحتمل، وأسقط حدة الألم وشبهه إلى اليتيم وأصبح يعاني حرمان الحنان من أقرب الناس، إنه شاعر مكلوم الجراح فسحقا لزمن كتب لقيس الشقاء والمعاناة التي لا تنتهي.

ويسترسل الشاعر في تباريح حبه فيقول:

بَليغٌ إذا يَشكو إلى غَيرَها الهَوى وَإن هُوَ لاقاها فَغَيرُ بَليغِ[3]

إن حالة الشاعر النفسية مزرية جدا، فهو لم يجد متنفسا لما يعانيه، لهذا نراه يتمعن برجوع محبوبته، وأن يفصح لها عما يعتريه من مشاعر المشقة والألم.

وازدادت شكاية قيس بن ذريح من ذكرى وتذكر لبنى، ومرد هذه الشكوى إلى حالته النفسية الكئيبة، ومن كل هذا يقول:

إذا ذُكِرَت لُبنى تَأَوَّهَ وَاشتَكى تَأَوُّهَ مَحمومٍ عَلَيهِ البَلابِلُ
يَبيتُ وَيُضحي تَحتَ ظِلِّ مَنيَّةٍ بِهِ رَمَقٌ تُبكي عَلَيهِ القَبائِلُ[4]

وقد عبر الشاعر عن معاناته، وكيف أنه يبيت الليل مترقبا للنجوم، وكلما زارته ذكرى لبنى يشكو شدة لوعته أكثر فأكثر ويتذكر أيامه التي قضاها قريبا منها، والتي أضحت مجرد ذكرى.

[1] قيس بن ذريح: ديوان، ص19.
[2] المرجع نفسه، ص115.
[3]، المرجع نفسه، ص64.
[4] المرجع نفسه، 68.

شريحة الشكوى:

الشاعر قيس يبث شكواه وولوعته وحرقته على محبوبته ليلى التي رحلت عليه و لم يعرف أي خبر عنها: فتارة نجده يشكوأمره إلى الله ، وتارة أخرى إلى الطيور المارة في السحاب، وبينما هو جالس متفكر حزينا ثم هام على وجهه إذ رأى سرب من القطر يتطاير فأنشد يقول:

شَكَوتُ إِلى سِربِ القَطا إِذ مَرَرنَ بي فقُلتُ وَمِثلي بِالبُكاءِ جَديرُ
أَسِربَ القَطا هَل مِن مُعيرٍ جَناحَهُ لَعَلّي إِلى مَن قَد هَوَيتُ أَطيرُ
فَجاوَبَني مِن فَوقِ غُصنِ أَراكَةٍ أَلا كُلُّنا يا مُستَعيرُ مُعيرُ
وَأَيُّ قَطاةٍ لَم تُعِركَ جَناحَها فَعاشَت بِضُرٍّ وَالجَناحُ كَسيرُ[1]

في هذه الأبيات يشكو الشاعر مشقة ألمه وحزنه وهو مكسور الخاطر مشتت الأفكار معذب مؤنب الضمير، في حالة نفسية سقيمة، إلى الطيور المارة في السحاب طالبا منها أن تعيره أجنحتها حتى يطير ويصل إلى ليلى لأنه لم يتحمل هذا البعد والألم، وأنها إن لم تعره ستبقى ملعونة من عنده حتى آخر نفس لها.

ليكمل حديثه عن الشكوى قائلا:

إِلَى اللهِ أَشكُو صَبوَتِي بَعدَ كُربَتِي وَنيرانُ شَوقِي مَا بِهِنَّ فُتورُ
فَإِنِّي لَقاسِي القَلبِ إِن كُنتَ صابِراً غَداةَ غَدٍ فِيمَن يَسيرُ تَسيرُ[2]

الشاعر في هذه الأبيات يشكو حبه واشتياقه لمحبوبته ليلى إلى الله سبحانه وتعالى لأنه هو المستعان وهو القادر على إعطائه الصبر على تحمل كل هذه المحن ولكنه في نفس الوقت خائف أن يظلم ليلى وينسى هذا الحب الكبير وبهذا نفهم أنه راض بهذا العذاب.

جمالية الشكوى

تكررت كلمة أشكو وأشكي في الديوانيين أكثر من مرة وبصفة كبيرة، وتكرارها هنا، أعطى نغما موسيقيا، فنيا رائعا، ذو صيغة جمالية راقية في أغلب قصائد المجنونين، وهذا ما زاد من حلاوة الأسلوب وجماليته ولذته، والحالة النفسية المليئة بالآهات والآلام والتوجع على واقع الحرمان، وما مرّا به من مآسي جسدتها لنا حالتي قيس بن ذريح وقيس بن الملوح، وتوظيفهما لهذه الشريحة دليل قاطع على شدة الألم وعمقه، وهذا ما زاد من حدة التأثير على إحساس القارئ ومشاعره من جهة، وترجمة لأحاسيس المجنونين من جهة أخرى.

[1] قيس بن الملوح: ديوان، ص 97.
[2] المرجع نفسه، ص97.

الحسرة.

لغة: جاء في معجم العربية الكلاسيكية كلمة الحسرة مأخوذة من الفعل الثلاثي حسر ؛حَسَرَ،حَسَرًا: تَعبَ وأعيا (حَسَرتْ الذابة)

- حَسَرًا وحَسرةً وحُسرانًا، ندم على أمر فاته أشد الندم، أسف ، تَحسَّرَ على الشيئي تلهف.

حَسْرَانْ: من اشتدت ندامته على أمر فاته.

حَسرةٌ:حُزن شديد، الندامة وشدة التلهف والحزن.[1]

من خلال ما سبق نفهم أن كلمة حسرة تعني؛ الندم، والحزن،الشديد على أمر فاته.

في المعنى العام:

الحسرة هي الندامة على أمر فاته وعادة ما تكون عند فقدان شخص عزيز وأحب إلى قلبك، وهناك من لا يكشف قيمة الشيء إلا بعد فقدانه، وتليها مباشرة الحسرة والحزن الشديد على الشيء الذي ضاع منك.

7- تبريحة الحسْرة:

غالبا ما يتحسّر الإنسان على فقدان الأشياء الثمينة، فقد عاش قيس بن ذريح هذه الحالة النفسية الصعبة والمتأزمة، كيف لا، وقد ندم ندمه العُكسّي، بعد موافقته على طلاق زوجته.

إنه متحسّرٌ، متاسّفٌ، نادم ولا ينفع الندم بعد القرار.

ويبدو أن وجع الحسرة كان أشد عليه من أي شيء آخر، يقول:

نَدِمْتُ على ما كان مِنِّي فَقَدْتُني كما يَنْدَمُ المَغْبُونُ حِينَ يَبِيعُ

إذا ما لَحَانِي العَاذِلاَتُ بِحُبِّها أَبَتْ كَبِدٌ مِمّا أُجِنُّ صَدِيعُ[2]

ندم قيس ندما شديدا، فكانت قصائده مليئة بألفاظ الحزن والألم، والبكاء، فهو نادم على ماضي، حيث شبّه ندمه بالشخص المغبون، المخذول الذي يُباعُ ولا يُرَدُّ.

ويستمر الشاعر في معاناته وحسرته، يتوسل أحيانا، ويبكي أحيانا أخرى، ويعض أصابع الندم من جراء ما شق عليه، ويصور إحساسه الشديد بالندم والحسرة، يقول:

وَإِنّي لَمُفنٍ دَمعَ عَينِيَ بِالبُكا حِذارَ الَّذي قَد كانَ أَو هُوَ كائِنُ

وَقالوا غَداً أَو بَعدَ ذاكَ بِلَيلَةٍ فِراقُ حَبيبٍ لَم يَبِن وَهوَ بائِنُ

[1] د يوسف محمد رضا: معجم العربية الكلاسيكية، مكتبة لبنان، النشرون، ط1 ، 2002م، ص 549.

[2] قيس بن ذريح: ديوان، ص105.

وَما كُنتُ أَخشى أَن تَكونَ مَنيَّتي بِكَفَّيكِ إِلّا أَنَّ ما حانَ حائِنُ[1]

يتذكر قيس بن ذريح أيامه السعيدة التي قضاها في حضن لبنى، فيستفيق على روحها وأيام أنسه بها حتى ما يصطدم بواقعه المرير، فيعود باكيا فيقول:

أَلا لَيتَ أَيّامَ مَضَينَ تَعودُ فَإِن عُدنَ يَوماً إِنَّني لَسَعيدُ

سَقى دارَ لُبنى حَيثُ حَلَّت وَخَيَّمَت مِنَ الأَرضِ مُنهَلٌّ الغَمامِ رَعودُ[2]

يصور قيس شوقه وحنينه إلى الأيام الخوالي، ويتمنى عودتها، وعندما يتذكر لحظات أنسه ومسرته مع لبنى يتحسر على تلك الأيام معبرا عن ندمه لذكرياته التي قضاها برفقتها، والأبيات مليئة بالحسرة الناتجة عن التمني كلقاء لبنى.

كما نجده في مطلع قصيدة أخرى، يصف ما حل بقلبه وفؤاده إثر فراق لبنى ولا أمل في عودتها يقول:

أيا كبداً طارتْ صُدُوعاً نَوافذاً ويا حَسرتا ، ماذا يُغَلغَلُ في القلبِ؟

فأُقْسِمُ ما عُمْشُ العُيُونِ شَوَارِفٌ رَوائمُ بَوٍّ حائماتٌ على سَقبِ[3]

في هذه الأبيات عبر قيس على حالته الإحباط التي يشعر بها، والتي يشعر بها، والتي تعبر عما حل بقلبه من ندم وتأسف، مقسما بالعيون التي لا تجف من الدموع.

مضت الأيام والتحقت لبنى بجوار ربها، ولما بلغ قيس الخبر تحركت أشجانه ندما وحسرة، فخرج إلى قبرها وقف وقال:

ماتَتْ لُبَيْنَى فموتها موتي هَلْ تَنْفَعَنْ حَسْرَةٌ على الفَوْتِ

وَسَوْفَ أَبْكِي بُكَاءَ مُكْتَئِبٍ قَضَى حياةً وجداً على مَيْتِ[4]

إنها حالة اليأس التي سيطرت على نفس قيس، فقد فقد جزءا كبيرا من حياته، فحل به ألم مزّق نفسه وأحشاءه، و لم يجد له حل، إنها مرارة فقدان الأحبة التي سيطرت على ذات الشاعر فقد فَقَدَ أغلى ما يملك وانقطع الأمل إلى الأبد.

طغت تبريحة الحسرة والندم على ديواني القيسيين، فقد جاءت عاطفة الشاعر قوية، حيث صورا صراع هذه العواطف نحوى صويحباتهما، فالإحساس الصادق بالحسرة يظهر تبريحة احبطاهما الداخلي من الفراق ونلاحظ أن

[1] قيس بن ذريح: ديوان، ص134.

[2] المرجع نفسه، ص92.

[3]: المرجع نفسه ، ص154.

[4] المرجع نفسه، ص48.

هذا الندم كثيرا ما يمتزج بالبكاء وخيبة الأمل، نتيجة ما قد حل بالشاعر من أحداث مريرة حيث أدرك فداحة ما خسر خلال حرب الأيام لهما ، وصراعهما معها وخروجهما من هذا الصراع صفر الأيدي يقلبان يديهما أسى وحسرة، فمن خلال دقة الوصف وبراعة التعبير في أسلوب الشاعرين، فجودة اللفظ والعبارة، منحت للأبيات الشعرية، بعدا جماليا، ملفتا للنظر وهذا ما أضفى على الديوانين حْسناً وجمالاً وأشعر المستقبل بشيء من الشوق غير قليل.

العذل

جاء في القاموس عربي عربي لمحمد لحام كلمة عذل، مأخوذة من الفعل الثلاثي عَذُلَ. يعْذِلُ. عذْلًا. فهو عاذِلٌ. ومؤنثه عاذِلةٌ. جمع عَواذِل. عُذَالَ، لوّام، العَذْلُ، اللوْمُ.[1]

العَذلُ هو لوْم وتأْنيب وعتاب، كما يقال لا يُلامْ إلا الحبيبُ والصديق.

8- تبريحة العُذل

أ- عند قيس بن ذريحْ

جعل قيس بن ذريح يعاتب نفسه في طاعته أباه في طلاق لبنى ويقول: أفلا رحلت بها عن بلده، فلم أر ما يفعل و لم يرني، فكان إذا افتقدني أقلع عما يفعله، وإذا فقدته لم أتحرج من فعله.وما كان علي لو اعتزلته وأقمت في حيها أو في بعض بوادي العرب،أو عصيته فلم أطعه؟ هذه جناتي على نفسي، فلا لوم على أحدا وها أنذا ميتٌ مما فعلته، فمن يرد روحي إلي؟

وكلما قرع نفسه، وأنبها بلون من التقريع والتأنيب بكى أحر البكاء ويعض أصابع الندّم، ويلصق خدّه بالأرض فيقول:

وَيلِي وعَولِي ومَالِي حِينَ تُفتُلنِي مِن بعدِ ما أَفرزَتْ كَفى بها الظَّفَرَا

قد قَالَ قَلبِي لِطرفِي وهو يَعْـذلـهُ هَذا جزاؤكِ مني فاكدم الحَـجَـرَا

قد كنتُ أنهاكِ عنها لو تُطاَوعُـنِـي فاصبُر فما لكَ فيها أجرُ مَنْ صَبَرَا[2]

الشاعر يوبخ نفسه ويلومها، ثم يبكي بصوت مرتفع ويصرخ، فهو في حالة يرثى لها من اللوم والتأنيب فهو تائه غريب مشتت الأفكار، ثم في البيت الثاني يبين بأن قلبه قد أخبر طرفه في لوم وعتاب فيكون الجزاء عضًّا على الحجر ندماً وتأسُفاَ.

[1] أحمد مختار عمر، المعجم العربي الأساسي، ص 83.

[2] قيس بن ذريح: ديوان، ص42.

وللوّم والعُذالِ جلالات نفسية وما يجتليها من آهات وأحزان تعذّب الشاعر فيقول:

ألومُكِ في شأني وأنتِ مُلِيمةٌ لعَمْرِي وأَجْفَى للمحبّ وأقطعُ

أخُبّرتِ أنّي فيكِ مَيّتُ حَسْرتي فما فاضمن عينيكِ للوَجْد مَدْمَعُ[1]

يلوم قيس في هذه الأبيات محبوبته لبنى، ويتهمها بأذم حُبها له وتخلت عنه بكل سهو لة، فهذا الحب يولد الأمل ويزيد من الرغبة في التمسك في الحياة حلوها ومرها.

ويستمر الشاعر في تأنيب نفسه قائلا:

فأصبحتُ الغَداةَ ألومُ نفسي علَى أمرٍ وليسَ بمُستطاعِ[2]

أصبح الشاعر يؤنب نفسه ويلومها ويعذلها على أمر خارج عن نطاقه دليل على شعوره الوجداني المتعب.

ب- عند قيس بن الملّوح.

عادة ما يلام شخص على ارتكابه لبعض الأخطاء، فبينما أكمل أبو قيس مناسكه حتى أقبل جميع أقاربه وجيرانه فعذلوا قيس ولاموه على ما فعل بحياته من أجل ليلى راجين منه تركها وأنه لا خير فيها، ولكنه لم يتقبل نصيحة أي واحد منهم وذلك لحبه الشديد وتعلقه بها ، وأنشد يقول في قصيدة.

يَجِيشونَ في لَيْلَى عَلَيّ ولم أنَلْ ... مع الْعذْلِ من لَيْلَى حَرَاماً ولا حِلاّ

سِوَى أَنَّ حُبًّا لوتَشاءُ أقَلُّهَا وَلوْتَبتَغِي ضِلاًّ لَكَانَ لها ظِلاَّ

أَلَا حَبَّذا أَطلاَلُ ليلى عَلَى البَلاَ ومَا بَذلَتْ لِي من نَوالٍ وإن قَلاَّ

فَما يتَمَادى العهدُ إلا تَجَدَّدتْ مَوَدَّتُها عندي وإن زَعَمَتْ أنْ لاَ[3]

يوضح الشاعر في هذه الأبيات أنها مهما لامه الناس وحكوا عليه فهو لا يأبه لهم، لأنه يعلم أنه لم يرتكب أي حرام أو حلال، وأن هذا الحب الذي يكنه لليلى هو من عند الله وما عليه هو الصبر.

ليكمل حديثه عن العذل في قصيدة أخرى فيقول:

فَوَيْلِي عَلَى العُذالِ ما يَترُكُونَنِي بِغمِّي، أما في العَاذِلِين لبِيبُ

يَقُولونَ لَو عَزَّيتُ قَلبَكِ لا رْعَوَى فَقلْتُ وَهَلْ لِلعَاشقِينَ قُلُوبُ

دَعَانِي الهوَى والشَّوقُ لَّما تَرَنَّمتْ هَتُوفُ الضُّحَى بَيْنَ الْغُصُونِ طرُوبُ[4]

---

[1] قيس بن ذريح: ديوان ، ص 60.

[2] المرجع نفسه، ص62.

[3] قيس بن الملوح: ديوان ص 56.

[4] المرجع نفسه، ص 59.

في هذه الأبيات يشكو الشاعر من العذالين واللوامين الذين لم يتركوه على حاله، فهم يرون أن قيس على خطأ وأنه لابد من التحكم في قلبه وامتناعه على حبه ليلى، وهذا ما أدى به إلى اكتشاف حبه الصادق ليلي وأن العاشقين مثله حبهم يبقى مزيف، فهنا يكمن الاختلاف بين حب قيس وحب الآخرين لمعشوقاتهم.

فمن خلال هذه الأبيات يمكننا القول أن قيس مهما لامه الناس ومهما نصحوه على الابتعاد علن ليلى لأنها غير مناسبة له إلا أنه بقي مصر بأنه سيبقى يكافح من أجل هذا الحب إلى آخر نفس له.

جمالية العذل:

وكان أيضا تبريحة العذال تجسيدا لدى القيسيين، حيث وظفا كلمة ألوم وأعذل في مجموعة من القصائد دلالة على الندم والحسرة على تلك التضحيات، وهذا لما تحتويه من أهمية كبيرة في اتضاح التأنيب بفضل قوتها التأثيرية على قابليتها، وهذا كان له وقع خاص على نفسية المتلقي لإثارة انتباهه وزاد من جمالية النص.

9- تبريحة اليأس

أ- عند قيس بن الملوح.

توفت ليلى ورحلت إلى الأبد ولا أمل من عودتها أبد الدهر، فشعر قيس بإحباط وخيبة أمل وأصبح يتردد إلى قبرها ومنهارا مكسورا القلب والخاطر وقرر مقاطعة الحديث مع الناس، ورغم هذا تقرب منه رجل وانشد له بعض أشعار ذريح، لأنه كان معجب به وأقسم له أن ينشد هو كذلك له من بعض أشعاره، فأنشد يقول:

وَإن حالَ يَأسٌ دونَ لَيلى فَرُبَّما أَتى اليَأسُ دونَ الشَيءِ وَهوَ حَبيبُ

وَمَنَّيتَني حَتّى إِذا ما رَأَيتِني عَلى شَرَفٍ لِلناظِرينَ يَريبُ[1]

فالشاعر في هذه الأبيات يشكو شوقه ولوعة الفراق على فقدان حبيبته ليلى التي فارقت الحياة ولن يراها مجددا،فهو يؤكد أنها الوحيدة بين ناضريه ولو كثرت الأسماء حوله،ثم يصف حالته وهو وكيف أن الحزن واليأس اعتراه بفقدانها.

ليوصل كلامه قائلا:

تَلَجّينَ حَتّى يَذهَبَ اليَأسُ بِالهَوى وَحَتّى تَكادَ النَفسُ عَنكِ تَطيبُ

سَأَسْتَعْطِفُ الأَيَّامَ فيكِ لَعَلَّهَا بِيَوْمِ سُرُوري في هَوَاكِ تَؤُوبُ[2]

[1] قيس بن الملوح: ديوان، ص117.

[2] المرجع نفسه، ص 118.

الشاعر مجروح القلب يعاني أشد المعاناة من جراء هذا الفقدان، لهذا فهو يستعطف الأيام على فقدانها لعلها تجعل حياته الآتية سرورا.

وفي موقع آخر يقول:

وَاللهِ مَا أَدْرِي على مَا هَجَرْتِنِي وأَيُّ أُمُورٍ فِيكِ يالَيلَى أَرْكَبُ

أأَقْطَعُ حَبْلَ الْوَصْلِ، فالموْتُ دُونَه أمْ اشرَبُ كأْساً مِنْكُمُ ليس يُشْرَبُ.[1]

من خلال هذه الأبيات نجد الشاعر يستفسر عن سبب هجرانها له وعن أي ذنب ارتكبه حتى رحلت عنه ولكن رغم هذا نجده في حيرة من أمره أيبقى على العهد والوصال أم يشرب كأس الفراق والنسيان.

ولأن الشاعر في حرة من أمره نراه يشكو أمره لليل وكيف أن اليأس قد خيم على حياته بعدما حلت عليه المصائب كلها فيقول.

فَيا لَيلَ كَم مِن حاجَةٍ لي مُهِمَّةٍ إذا جِئتُكُم بِاللَيلِ لَم أَدرِ ماهِيا

خَليلَيَّ إِن لا تَبكِيانِيَ أَلتَمِس خَليلاً إِذا أَنزَفتُ دَمعي بَكى لِيا[2]

كذلك نجده يقول في قصيدة أخرى

بِيَ اليَأسُ أَو داءُ الهُيامِ أَصبني فَإِيّاكَ عَنّي لا يَكُن بِكَ ما بِيا

إِذا ما اِستَطالَ الدَهرُ يا أُمَّ مالِكٍ فَشَأنُ المَنايا القاضِياتِ وَشانِيا[3]

الشاعر هنا يائس من حاله لأن داء الهيام أصابه، وذلك لأن الهيام أعلى درجات العشق، فهو لا يستطيع نسيان حبيته ليلى فتراه هنا يفضل الموت على هذا العذاب الذي أهلكه.

جمالية اليأس:

طغت جمالية اليأس في ديوان قيس بن الملوح والتي تمثلت في تلك الآهات المؤلمة التي أثرت على نفسية الشاعر مما جعلته في محنة وعذاب، ولكن رغم هذا العذاب إلا أنه بقي يتلذذ به وهو ما زاد في شعره رونقا وجمالا.

[1] قيس بن الملوح: ديوان، ص 119.

[2] المرجع نفسه، ص 122.

[3] المرجع نفسه، ص 125.

وفي الأخير، تبين لنا أن شعر القيسيين دار في مجمله حول قصة حب عاشها مع صويحباتهما ليلى ولبنى ونتيجة قول شعرهما، راجع إلى صرامة تقاليد القبيلة، فعاش كلاهما مشقة الألم والعذاب والآهات التي أثقلت كاهل الشاعرين، وكان سمة الحرمان والمعاناة قاسما مشتركا لدى المجنونين.

الخاتمة

في الأخير توصلنا إلى مجموعة من الأفكار والنتائج التي دارت حول شعرية التباريح الذي يكتنفه الغموض، نتيجة لتعدد معانيها، هذا ما جعل العثور على تعريف لهذا المصطلح يتطلب جهدا من الدارسين والباحثين، ومن خلال هذه الدراسة توصلنا إلى:

1- شعرية التباريح ساهمت بشكل كبير في تحقيق العنصر الجمالي للنص الأدبي.

2- كان للتباريح دور كبير في دعم آهات الشاعرين ليبدوا أكثر شعرية وفنية.

3- امتازت التباريح في المتن الشعري بالتعدد والتنوع في الدلالة .

4- تلعب التباريح دورا هاما في حياة الشاعر فهي النواة التي التفت حولها أفكاره.

5- التباريح أحد العناصر المهمة في تشكيل القصيدة في الشعر العربي.

6- التباريح في الشعر العربي القديم تتضح أبعاده وتجلياته من خلال تأثر الذكريات المترسبة فبي مرجعية الشاعر الوجدانية.

7- يعتبر القيسيين أبرز الشعراء الأمويين والمحافظين اللذان تأرجحت قريحتهما الشعرية بين النقاء والصفاء والطهارة واقتصر موضوعهما على الغزل العذري العفيف.

8- للتباريح تأثير عميق في النفس الإنسانية ويلعب ويخلق قريحة أدبية في إنشاء النصوص الشعرية إذ أن كل شاعر يضفي عليه رؤيته وإحساسه الخاص، وقد أدت هذه الرؤى إلى اضفاء صبغة جمالية شعرية مميزة وخلفية فنية رائعة على المتن الشعري.

قائمة المصادر

والمراجع

أ- القرآن الكريم:

سورة الكهف الآية28.

سورة النور االآية 33.

سورة يوسف الآية53.

ب- المصادر:

1- قيس بن الملوح:ديوان مجنون ليلى، رواية أبي بكر الوالبي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان،ط1 1460ه، 1999.

2- قيس بن ذريح: ديوان قيس لبنى،دار الكتاب العربي ،بيروت،ط1416،2ه ــ1996م.

ج-المراجع:

1- أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين الجزء الأول، تح، عبد السلام محمد هارون، الناشر مكتبة الخانجي لطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، مصر، ط7، 1998.

2- أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: الحيوان، تح، عبد السلام هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي بيروت لبنان، ط3، 1969.

3- إحسان عباس: فن الشعر، دار صادر، دار الشروق، عمان، بيروت، ط1، 1996.

4- أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية والعليا، ط1، دار النهضة للنشر والتوزيع- الفجالة- القاهرة.

5- أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، ط3، دار الشرق العربي للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان بيروت، 2017م/1438ه.

6- أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، ط3، 1438ه، 2017م، دار الشرق العربي للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت.

7- أدونيس: الشعرية العربية، ط1و2، دار الآداب، بيروت.

8- أرسطو: فن الشعر، تر: إبراهيم حمادة، مكتبة الأنجلو المصرية، د ط، د ت.

9- بشير توريريت، الشعرية والحداثة.

بيروت، لبنان، ط4، 2005

10- تزفيطان تودوروف : الشعرية، تر: شكري المبخوث ورجاء بن سلامة، دار بوبقال للنشر، المغرب، ط 1 1990،1987،2.

11- جون كوهن: النظرية الشعرية، ترجمة: أحمد درويش، ط4، دار غريب، القاهرة، 2000.

12- حسن ناظم: مفاهيم الشعرية (دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم) المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1994.

13- حسين جبار محمد الشمسي: الغزل في عصر صدر الإسلام، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط1، 2002.

14- حنا الفافوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم.

15- عبد العزيز عتيق: في الأدب الإسلامي الأموي، ط1، 2001م.1422ه، دار النّهضة العربيّة، بيروت لبنان.

16- رمضان الصباغ : في نقد الشعر العربي المعاصر، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1 1998.

17- رومان جاكبسون: قضايا الشعرية، محمد مبارك، دار بوبقال للنشر، الدار البيضاء.

18- سراج الدين محمد: الغزل في الشعر العربي، د ط، دار الراتب، الجامعية، بيروت، لبنان.

19- شكري فيصل: تطول الغزل بين الجاهلية والإسلام.

20- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، ط11، دار المعارف كورنيش النيل، القاهرة.

21- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، ط11، دار المعارف كورنيش النيل، القاهرة ج.م.ع.

22- شوقي ضيف: سلسلة تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، دار المعارف للطباعة والنشر، ط20 القاهرة.

23- طه حسين:حديث الأربعاء،ج1،دار المعارف 1119 كرنيش النيل 1920،ج 1،ط 15.

24- عبد الرحمن عبد الحميد علي: تاريخ الأدب في العصر الجاهلي، د ط، دار الكتاب الحديث، 1428-2008.

25- عبد القادر القط: في الشعر الإسلامي والأموي.

26- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تح: محمود محمد شاكر ،د ط، الدار المدني، القاهرة د ت.

27- عبد القاهر جرجاني: دلائل الإعجاز، (تح) محمود محمد شاكر، د ط، دار المدني.

28- عبد المالك مرتاض: مفهوم الشعريات في الفكر النقدي العربي، مجلة برقة للبحوث والدراسات، عنابة الجزائر، 2007.

29- عز الدين مناصرة: علم الشعريات (قراءة منتاجية في أدبية الأدب)، دار مجد لاوي للنشر والتوزيع عمان، الأردن، ط1، 2008.

30- عمر بوقرورة: الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديثي 1945-1962(د ط)منشور جامعة باتنة.

31- عمر يوسف قادري: **تجربة كمال ناصر الشعرية**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د ط 2009م.

32- غازي ضليمات وعرفان الأشقر في الأدب الجاهلي، دار الارشاد- حمص-،ط1، دمشق 1993م/1413هـ.

33- كاميليا عبد الفتاح: إشكاليات الوجود الإنساني، دراسة نقدية تطبيقية في الشعر الواقعي والحداثة دار المطبوعات الجامعية الإسكندرية (د،ط)، 2008 .

34- كمال أبو ديب: في الشعرية، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ط1، 1987.

35- محمد أحمد الحوفي: الغزل في العصر الجاهلي، دار النهضة، القاهرة، مصر، ط1، (د ت).

36- محمد صلاح عيد: الغزل العذري، حقيقة الظاهرة وخصائص الفن، مكتبة الآداب، القاهرة.

37- محمد عبد العزيز الكفراوي، تاريخ الشعر العربي في صدر الإسلام وعصر بني أمية، ج1، مصر.

38- محمد عبد المطلب: قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، د ط، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت 1995.

39- مشري بن خليفة: الشعرية العربية مرجعياتها وابدالاتها النصية، وزارة الثقافة، الجزائر، د ط، 2007م.

40- مصطفى صادق الرّافعي: تاريخ آداب العرب، ط2، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، 2009، المجلّد الثالث.

41- هدى التميمي: الأدب العربي عبر العصور، دار الساقي شارع العويني، ط1، بيروت، لبنان،2015.

42- يوسف حسين بكار: اتجاهات الغزل في القرن الثاني هجري، دار المنهال لطباعة والنشر والتوزيع، ط2 بيروت.

43- يوسف محمد رضا: معجم العربية الكلاسيكية، مكتبة لبنان، الناشرون، ط1، 2002.

د- المعاجم

1- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب ، ج 13 .دار صادر للطباعة والنشر،ط4، بيروت، لبنان،2004.

2- أبو الفضل محمد جمال الدين بن مكرم بن منظور: لسان العرب، مج8، دار صادر للطباعة والنشر.

3- أحمد مختار : المعجم العربي الأساسي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لغوس.

4- حمد لحام:قاموس عربي عربي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 2007، ط2.

5- بطرس البستاني، محيط المحيط، مج 1، دار الكتب العلمية 1634م-1300ه-1159-113م.

الفهرس

العنوان	الصفحة
شكر	
مقدمة	أ – ب
الفصل الأول: الغزل في الشعر العربي	
أولا: مفهوم الشعرية	05
أ- لغة	05
ب- جدور الشعرية عند الغرب	06
- أفلاطون و آريسطو	07
- جون كوهن	08
- تودوروف	08
- رومان جاكبسون	09
ج- عند العرب	09
عبد القاهر الجرجاني	09
الجاحظ	12
كمال أبو ديب	13
ثانيا: تطور الغزل عبر العصور	16
أ- في العصر الجاهلي	17
ب- صدر الإسلام	28
ج- العصر الأموي	32
ثالثا: أنواع الغزل وخصائصه في الشعر العربي	39
أ- الغزل العمري العفيف	39
ب- الغزل العذري	41
الفصل الثاني : شعرية التباريح عند المجنونين	
أولا: نبدة عن حياة الشاعرين	52
1- قيس بن الملوح	52
2- قيس بن ذريح	52
ثانيا: الدلالة الغوية لمصطلح التباريح	54

1- البين	55
2- الحزن والأسى	58
3- البكاء	62
4- الهجر	65
5- الشوق والحنين	67
6- الشكوى	71
7- الحسرة	75
8- العذل	77
9- اليأس	79
خاتمة	83
قائمة المصادر والمراجع	85